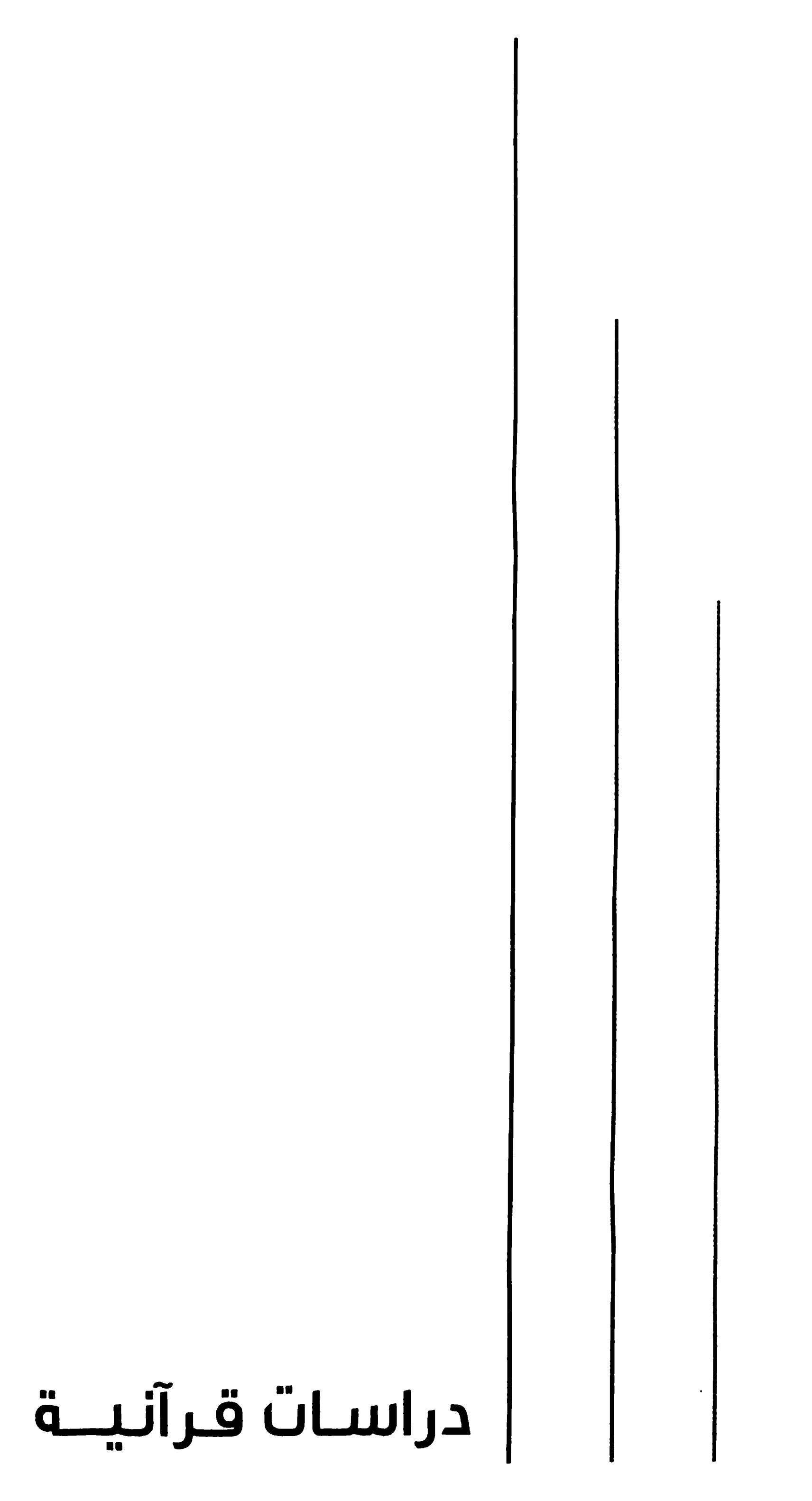
أ.د. عماد الدين خليل

دراسات قرآنية





دراسات قرآنية

• الموضوع: دراسات

• العنوان: دراسات قرآنية

• تأليف: أ.د. عماد الدين خليل

الطَّبعَةُ الأُولَى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

ISBN 978-614-415-316-1

ISBN 978-614-415-316-1

9 786144 153161

• الطباعة والتجليد: المطبعة العربية - بيروت

• الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف

• القياس: 15×22 / عدد الصفحات: 352 / الوزن: 460 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com


 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

أ.د. عماد الدين خليل

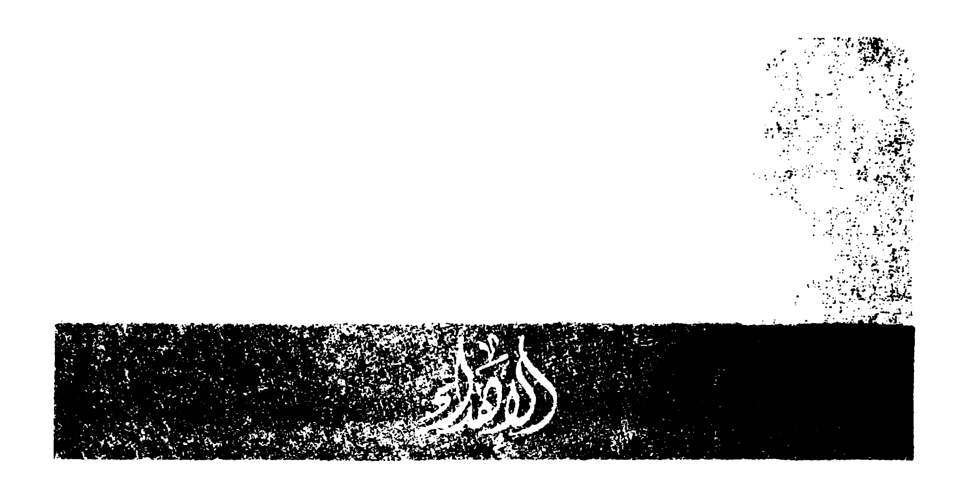
دراسات قرآنيـــة











إلى كل الذين تسلّموا الرسالة الإلهية التي بعث بها الله جلّ في علاه... إليهم... فوضعوها في عقولهم وقلوبهم ووجدانهم... ومضَوْا في الطريق... لكي يعيدوا على ضوئها بناء العالم!!



رحلتي مع كتاب الله

تبدأ رحلتي مع كتاب الله «بالسماع»، حيث حباني الله ﷻ منذ طفولتي بأذن مرهفة تعرف كيف تلتقط الأصوات العذبة، وتتفاعل معها، وتنفعل بها... كان أبي ـ رحمه الله ـ هو نقطة البداية ـ إذا صحّ التّعبير ـ بصوته الهادئ العذب، وهو يرتّل ما يحفظه من كتاب الله صبيحة كل يوم، قبل أن نستيقظ لتناول الفطور... كان صوته يصعّد في الأعالي، يجتاز فناء الدار باتجاه السطح، حيث كنا ننام في ليالي الصيف، فكنا نصغي إليه بنشوة بالغة، وهو يتلو سورة ياسين، أو الكهف، أو غيرهما من كتاب الله...

تنطبع نبرته، جرسه، نغماته، مقاماته، في أعمق حلقة من حواسّنا البكر، التي كانت تتعامل مع الخبرات كما لو كانت اكتشافاً يومياً، فتزداد رهافة وحساسية وإعجاباً بكلمات الله...

منذ فترة مبكرة، كانت تدهشني قصار السور في أجزاء عم وتبارك والذاريات، وسور الكهف ومريم وطه، وياسين والصافات وص والزمر وغافر وفصّلت وقّ... في إيقاعها، وجرسها، وتنوع فاصلاتها، في سرعتها... في ويلها وثبورها الذي تصبّه على رؤوس

الكافرين... وفي بُشرياتها العذبة للمؤمنين... في عروضها المؤثرة لمشاهد القيامة من جنة أو نار... لكنني ـ بمرور الوقت ـ لم أقف عند هذا الحدّ، بل امتدت دهشتي إلى سور القرآن كافة بما تنطوي عليه من إعجاز بياني، وعلمي، وموضوعي، وتشريعي... وبما تقدّمه لقرّائها من منظومة معرفية مدهشة في عمقها وإحاطتها وشمولها...

حتى إني قررت ـ مع نفسي ـ يوماً أن أبدأ بحفظ كتاب الله، وبدأتُ بطبيعة الحال، بحفظ جزأيه الأخيرين تبارك وعم... ثم ثنّيت بحفظ السور الثلاث: الكهف ومريم وطه... ثم جئت إلى بدايته فحفظت مئة وخمسين آية من سورة البقرة... وكنت أوظف أوقات فراغي لتأكيد ما حفظته، وتجاوز نسيان ما قد يتعرض للنسيان من آياته ومقاطه.

وأذكر أني عندما كنت أمارس الرقابة على امتحانات طلبة كلية الآداب التي كنت أدرّس فيها، كنت أذرع القاعة الامتحانية وعيني على الطلبة، وذاكرتي تسترجع ما حفظته من سور القرآن... ولكن، للأسف الشديد، سرعان ما وجدتني، وسط مشاغل القراءة والتأليف، أتباطأ عن الاستمرار في الحفظ، بل الاحتفاظ بهذا الذي حفظته من قبل، وأساله تعالى ألّا يحاسبني على تقصيري هذا، الذي سبق لرسول الله ﷺ أن حذّر منه في حديث شريف... وأن يعوّضني عن ذلك بما أنجزته من دراسات قرآنية على مدى خمسين عاماً أو تزيد.

ثمّة مسألة أخرى لا بدّ من الاعتراف بها وأنا أتحدث عن رحلتي مع كتاب الله... تلك هي كراهيتي الشديدة، أيام طفولتي لحضور الكتاتيب (أو ما نسمّيه في العراق الملّا)، حيث كان آباؤنا يرغموننا على الانتساب لكتّاب المحلّة التي نقطن فيها، أيام العطل الصيفية، تخلّصاً من عبثنا الصبياني، لكي نقضي هناك ساعات الصباح الطويلة ونحن نجلس بملل وتثاؤب أمام الملّا، وهو يقرئنا القرآن وفق الطرائق التقليدية الجافة الميتة والمنفرة، بحيث إنني كنت أنتهز فرصة انشغاله مع هذا التلميذ أو ذاك، لكي ما ألبث أن أتسلل خفية عائداً إلى البيت، فإذا به يكتشف غيابي فيبعث اثنين من زبانيته يجيئون فيحملوني على أكتافهما ويعودون بي إلى الملّا لتلقّي العقاب والتوبيخ...

استمرت هذه الحالة من الاكتئاب اليومي لدى التوجُّه إلى الملّا... ومحاولات الهروب المتواصلة والإعادة إليه مرة أخرى، أكثر من سنتين... بحيث إنني كنت عندما تفتح المدارس أبوابها، مع إطلالة كل خريف، أحسّ بفرح غامر يتملّكني... حيث كنا في المدرسة نتلقّى دروس الدين بصيغة أكثر تشويقاً بكثير من الصيغ الميتة في الملّا.

ولحسن حظي، فإن ردّ فعلي من الملّا، لم يدفعني مطلقاً ـ كما دفع طه حسين من قبل ـ إلى كراهية كل تقاليد التعليم الديني والقرآني بشكل خاص... بل وجدتني على العكس، أندفع ـ ذاتياً ـ لاختيار الطرائق الأكثر حيوية وتشويقاً في تعاملي مع

النصّ القرآني، وما ذلك إلا بفضل الله سبحانه ورحمةً منه جلّ في علاه...

في عصاري رمضان، الذي عايشناه في طفولتنا لأوّل مرة في فصل الصيف (في الأعوام ١٩٤٦ ـ ١٩٥٠م)، كانت أصوات المذياع في البيوت والمقاهي ترفع تلاوات عمالقة الترتيل في القاهرة وبغداد: الشيخ محمد رفعت، أبو العينين الشعيشع، عبد الفتاح الشعشاعي، طه الفشني، عبد العظيم زاهر... الحافظ مهدي... الحافظ خليل...

ومنذ فترة مبكرة تعلّق سمعي، ووجداني بتلاوة الشيخ محمد رفعت وأبي العينين... كانت تفعلان في جملتنا العصبية فعل السحر... فكنّا نلتصق بالمذياع كي لا تفوتنا آية أو كلمة يصدح به محمد رفعت أو أبو العينين...

فيما بعد عندما أتيح لي أن أشتري جهاز تسجيل (كروندينك) رحت أنقل على أشرطتي الخاصة كل ما أسمعه من تراتيل محمد رفعت، التي كانت تبثّها إذاعة القاهرة في أماسي الاثنين من كل أسبوع... فكنت لا أملُّ سماع الشيخ وهو يرتل ما تيسّر من القرآن... ولكن آه من العلم، ومن التقدم العلمي، الذي يلغي اليوم ما اعتمده بالأمس، وسيلغي غداً ما يعتمده اليوم... إذ سرعان ما أصبحت (الأشرطة) (دقّة قديمة)، وغابت معها أجهزة التسجيل... وما لبثتُ أن قرأت الفاتحة على المجموعة القيّمة من تلاوة الشيخ!!

عندما بدأت أمارس الكتابة أنجزت مقالاً عن الشيخ بعنوان (محمد رفعت: الصوت والوهج)، ضمَّنته مؤلَّفي البكر (كتابات إسلامية) جاء فيه: «في تاريخ الترتيب المعاصر يبرز (محمد رفعت) علماً شامخاً، وطاقةً صوتية فذة، وضَوْءاً شفافاً يدعو إلى الإعجاب... مَن منّا لم يسمع (محمد رفعت) ولو مرة واحدة في حياته؟!

ما الذي يشدُّ الإنسان إلى الرجل الأعمى وهو يقرأ مقاطع من سورة مريم أو طه أو يوسف أو الإنسان أو الفتح أو الرحمن أو الكهف أو آل عمران أو غيرها من قصار السور؟ ما الذي يجعلنا نعلّق أرواحنا وإحساسنا به، وننسى، ونحن نندمج بكلمات الله مرتّلة على لسان الشيخ، متاعبنا ومشاغلنا وآلامنا؟!

ما الذي حمّل هذا الصوت العجيب مقدرةً على أن يتجاوز بنا النسبي المحدود إلى الخالد المطلق، والمأساة والحزن إلى الفرح الروحي الغامر، والتقطع والزوال، إلى الامتداد والاستمرار؟ ما الذي يجعلنا نحسّ، وهو يصعّد صوته في الأمسيات، أن الموت ليس مخيفاً إلى هذا الحدّ، وأن الحياة الدنيا ليست مغرية آسرة إلى هذه الدرجة، وأن المتاعب والمصائب ليست شيئاً نهائياً ساحقاً وجداراً أصمَّ يستسلم تحت وطأتهما الإنسان؟ ما الذي يجعل الدموع تتساقط من أعيننا، وهو يرتّل، ونتحرّق شوقاً ونذوب؟!

ليس صوته الصافي الفذ الحنون هو وحده السبب وراء هذا كله، وليست المقامات والأنغام، المتنوعة الفنية الخصبة، هي

وحدها السبب، وليست المقدرة (التعبيرية) عن الصورة القرآنية هي وحدها السبب كذلك، إنها هذا كله، مضاف إليها، أن (محمد رفعت) يسكب نفسه وهو يرتل، يذوب وجداً وهو يتنقل عبر كلمات الله ومقاطع السور والآيات، يمنح قلبه وإحساسه ووجوده بالكلية للكتاب الذي يقرأ فيه ولا يستبقي لنفسه شيئاً، لأنه لم يعد هنالك رجل يدعى (محمد رفعت)... إنما هناك صوت بشري، متفرد، غني، خصب، قادر على الاندماج والتعبير، ينقل لنا، بنبراته الخاصة، أصوات القرآن ونداءاته وصوره المدهشة، ويضعنا وجهاً لوجه أمام معجزته، وكأن الآيات تتنزل علينا اللحظة لكي تستجيش مشاعرنا وتهزّنا من الأعماق!!

حقاً، إن الصوت البشري المبدع، هو خير وسيلة تبعث فينا الحسّ القرآني المليء بالغبطة الروحية، والفرح الغامر، والأمل الكبير، وتجعلنا نعلو، شيئاً فشيئاً على آلامنا ومتاعبنا ومخاوفنا وأحزاننا، وما أكثرها في دنيا يتكسر فيها الإنسان المسلم في اليوم الواحد عشرين مرة!!

ونقف قليلاً عند الأداء التعبيري العجيب لدى (محمد رفعت)... إنه عندما يرتل ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ يجسّد لنا بنبراته الرفيعة، بالنغم المتسائل الذي يعلّقه على الكلمة الأخيرة، السؤال الكبير، وأزمة القلق البشري، وقضية المصير الكبرى، ويجيبنا عليها في الوقت نفسه، فنثق ونطمئن ونرتاح... وهو عندما يصرخ بأعلى الطبقات الصوتية: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً

وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١١ ـ ١٢]... إن كلمة ﴿وَجَزَىٰهُم﴾ تجيء هنا بنبرة يعجز القلم عن تصويرها، لكنها على أية حال تمنحنا الأبعاد الحقيقية للجزاء الإلهي، الذي يجيء دائماً وفق أدقّ الموازين تقديراً للإنسان الذي كدح طويلاً وأعطى كثيراً!!

وأذكر أنني كنت أستمع إلى (الشيخ) وهو يرتل مما تيسر من سورة طه، وورد النبأ المفجع (المفرح!!) بتنفيذ حكم الإعدام بصاحب (الظلال)... كان الشيخ يصعّد صوته آنذاك ويمدّه... بنبرات غنية متنوعة مليئة بالحزن والأسى وهو يقرأ: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾!! [طه: ٤٢ ـ ٤٦].

ومن خلال الدموع الصامتة، رأيت حركة التاريخ الدائمة تدور حول نفسها، لتعيد، عبر عشرات القرون، الدور نفسه!!

ويبقى دائماً شرف الإنسان، تبقى كرامته... في مجابهة عمليات القتل والانتقام هذه، وفي استمداد القيم الحقيقية المضيئة من لياليها السوداء... تماماً كما كان (الشيخ) يستمد من ظلمة عينيه، الوهج الذي يعرف كيف يذيب الأفئدة ويضيئها، في الوقت نفسه!!».

انتقلتُ في تعاملي مع النصّ القرآني من رجفة الوجدان إلى دهشة الفكر، أو أضفت ـ بعبارة أدق ـ القراءات المتواصلة في التفاسير والدراسات القرآنية، حيث وجدت (الظلال) للشهيد سيد

قطب يتبوأ مكانها الأعلى في ميدان التفسير، وحيث رحتُ أطالعه على مكث خشية أن آتي عليه، فمكثت في مطالعته على تقطّع خمساً وثلاثين عاماً... ولقد انعكس هذا الإعجاب في مقال يحمل عنوان (الظلال... ذلك الإنجاز المتفرّد) نشر هو الآخر في (كتابات إسلامية) جاء فيه: «عندما تكون الأهداف والمنطلقات واحدة... وعندما تكون المحبة عميقة وكبيرة، تجيء المواقف والتوقعات والنتائج واحدة... هكذا يحدّث الإنسان نفسه، ويصل حدّ الاقتناع عندما يطالع في (الظلال)... أمام أي حرف أو كلمة أو آية أو مقطع أو سورة، يقف الإنسان المؤمن المتوحد المحب، ينتابه إحساس عميق، مسبق، وتخمين يبلغ اليقين، ورؤية نقية لا غبش فيها... بما سيقوله (الشهيد) حول المسألة!!

وفي معظم المواقف، إن لم أقل كلها، يجيء الإحساس المسبق صادقاً نقياً، ويقرأ الإنسان تحليل القضية أو الموقف أو الكلمة وكأنه يقرأ في نفسه... وطالما تعجلت وأنا أطالع في هذا السفر العظيم، لمحة أو إشارة أو تعليق أو صورة، أو التفاتة، فإذا بها تجيء دائماً في مكانها المناسب، وإذا بي أكون قد تعجلت أكثر مما ينبغي، لأن ما نتوقعه في ساحات (الظلال) البعيدة الشاملة المترعة لا بدّ أن يجيء كما نتوقع ونتخيل... ما دمنا نحب (الشهيد) هذا الحب، وما دمنا قد آثرنا أن ننطلق معه منذ اللحظة الأولى، من نفس البداية، ونواصل الدرب معاً، عبر رؤية وفهم مشتركَيْن، صوب تحليل القرآن، هو في الحقيقة أروع تحليل.

إن تفاسيرنا (القديمة) التي منحنا أصحابها الثمار والمتاعب في الوقت نفسه، كانت تعاني في كثير من الأحيان التطرّف في هذا الاتجاه أو ذاك، وكانت تتضخم في ناحية بينما تنكمش في ناحية أخرى، ولم تعرف إلا قلة منها، المنهج الذي يبحث عن التوازن والتوزيع العادل للمساحات، ومتابعة كل المسائل والمواقف القرآنية، بقدْر مشترك من الاهتمام والتحليل.

إننا نجد في بعضها انهماكاً مبالغاً في التحليل اللغوي، أو البلاغي، وفي بعضها الآخر اتجاهاً تاريخياً يتجاوز الوقائع إلى السرد القصصي والخيال الإسرائيلي، ويتطرف في نزعته الميتافيزيقية، ويأخذ عن أهل الكتاب جلّ تراثهم في ميدان القصة والأسطورة والتاريخ دونما نقد ولا تمحيص.

وفي تفاسير أخرى نلمح تأكيداً على مفاهيم الفرقة المذهبية التي ينتمي إليها المفسر... فيجيء عقلياً مؤثراً على يد مفسر معتزلي، وصوفياً مهوّماً على يد مفسر صوفي، وخارجياً حرفياً على يد مفسر ظاهري، وفقهياً تشريعياً على يد مفسر فقيه... وباطنياً تأويلياً على يد مفسر إسماعيلي!!

ورغم محاولات (عصرية) عديدة بُذلت لتفسير القرآن وفق منهج حديث يتجاوز السلبيات القديمة، إلا أنها جميعاً لم تجئ كما جاءت (الظلال)؛ شاملة، موزعة، عادلة، لا تغادر المسألة التي بين يديها إلا بعد أن تشبعها بحثاً وتحليلاً وتمحيصاً على كل المستويات: العقيدية والتشريعية والروحية والتاريخية واللغوية

والعلمية والجمالية... ولئن بدا أن في (الظلال) تأكيداً على الجوانب السياسية والتشريعية؛ فما ذلك إلا لأن القرآن نفسه صبّ جلّ معطياته على مفهوم (التوحيد) المطلق الشامل، الذي تنبثق عنه بالضرورة كل المواقف والاتجاهات السياسية والتشريعية، التي أريد لها أن تنظم الحياة البشرية تنظيماً يتيح للإنسان المسلم أن يمارس سائر فاعلياته وهو يتحرك على أرضية صالحة ويتوجه بالتعبد الشامل صوب إلهه الواحد.

إن الكثيرين ممن مروا سراعاً في (الظلال) قالوا أنه ليس تفسيراً بالمعنى الدقيق المعروف، وأنه لا يعدو أن يكون مجرد خواطر وتعليقات في كتاب... ومأساة هؤلاء أنهم اعتادوا التفكير الجزئي، الحرفي البارد، الذي لا يتجاوز مدى الكلمة ومعناها، والشرح المبسط للمفردات والعبارات والجمل... والتقصّي المملّ للشواهد البلاغية واللغوية، والارتداد غير العلمي إلى قصص أهل الكتاب ومتع الإسرائيليات.

والحق أن (الشهيد) لم يشأ في كتابه الكبير مخاطبة هؤلاء، إنه تجاوز متطلباتهم إلى مستويات وآفاق عليا. فقد أكد في تفسيره على وحدة المقاطع والمجموعات والسور، ورفض التجزئة والتقطيع، في محاولة رائدة في هذا المجال، كما عمّق بإحساسه وثقافته الفنية الأصيلة فكرة تناسق الشكل والمضمون، دون تفريق أو فصل، واعتمد في تحليله وسرده أسلوب (التعبير الوجداني)، الذي سلكه القرآن نفسه كأفضل وسيلة لاستثارة الحسّ الديني لدى

الإنسان، وفتح منافذ وجوده على موحيات النفس والكون والعالم، ومن ثم إدراك وحدة الخالق ﷻ والإيمان به إيماناً حيوياً حركياً مدركاً...

ويبقى في (الظلال) بعد هذا كله، وأهم من هذا كله، شيء أساسي يكاد يتفرّد به صاحبه: إنه محاولة فذة للانسجام مع الأجواء القرآنية ذاتها، مع الظلال التي تطرحها المواقف المتعددة في كتاب الله، لكي يجيء التفسير مصوغاً بالمادة القرآنية نفسها، متشرِّباً روحها وسماتها، مطبوعاً بخصائصها وبصماتها، ومن ثم فإن القارئ لن يجد نفسه أبداً، وقد شذ عن الأرضية القرآنية، من أجل تتبّع مفرد لغوي، أو تخريج بلاغي، وملابسة فقهية، وقصة تاريخية هي في أكثر الأحيان من نسج الخيال... إنه في (الظلال) يظل دائماً في نطاق (الجوّ) القرآني، ويندمج في كلمات الله... يتناغم معها ويتساوق ويتوغل في معطياتها إلى أبعد الحدود دون أن يشذَّ لحظة أو يبعد عن النسيج الذي يتنفسه بوعيه وبصيرته، وعن البستان المزهر الذي يتجول في أفيائه الغنّاء بروحه وعقله ووجدانه.

إن (الظلال) في توافقها العجيب هذا مع كتاب الله، توافق الجوهر والصورة، تُعدّ ـ لعمري ـ فتحاً في تاريخ التفسير، ورحم الله (الشهيد) إذ سمّاها ظلالاً[1]».

ومع (الظلال) أوغلت في قراءة ودراسة العديد من التفاسير والدراسات القرآنية، التي شكّلت في خزانتي العقلية المزيد من

الفهم والإعجاب بهذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الردّ... ومع القراءة والدراسة حضور الندوات والمحاضرات، والمشاركة في مناقشة الرسائل والأطروحات التي انصبّ بعضها على التعامل مع النص القرآني...

ولا زلت أذكر، وأنا لا زلت بعد طالباً في مرحلة الماجستير في معهد الدراسات العليا في بغداد عام (١٩٦٤م)، كيف جاء من أخبرني وأصدقائي بوصول الباحثة المصرية المعروفة (عائشة عبد الرحمن: بنت الشاطئ) إلى بغداد، بدعوة من كلية الشريعة، لإلقاء جملة من المحاضرات، وكيف أنها ستلقي ذلك اليوم محاضرة في تفسير (سورة العصر)... فما كان منّا إلّا أن هرعنا إلى هناك... وأذكر أني اخترت مكاناً قريباً من المحاضِرة الجليلة ورحتُ أتابع محاضرتها بشغف...

استمرت المحاضرة خمسين دقيقة، فما أحسست حينها بالزمن، لشدة اندماجي بعرضها البياني الرائع لسورة العصر، وأن قسم الله ﷻ بالعصر لم يقصد به فترة زمنية محدودة، ولا وقت العصر بالذات، إنما الزمن الذي يتحرك كآلة جبارة تعصر الإنسان عصراً ولا تتركه إلا فرقاً وأشلاءً... ولن ينجو من هذا المصير إلا أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات...

والحق... لقد كانت تلك المحاضرة واحدة من أروع ما سمعت في حياتي من محاضرات... على صاحبتها رحمة الله ورضوانه...

وما لبثْ أن جات المرحلة الثالثة من تعاملي مع النصّ

القرآني: البحث والاستقصاء، والدراسة والتحليل، والتي تمخضت عن جملة كبيرة من المقالات والبحوث والمؤلفات التي عالجتُ فيها جملة ملحّة من قضايا الفكر الإسلامي، انطلاقاً من كتاب الله...

وفيما يلي قائمة بأهم هذه المؤلفات:

١ ـ التفسير الإسلامي للتاريخ.

٢ ـ المنظور التاريخي في فكر سيد قطب.

٣ ـ التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي.

٤ ـ مدخل إلى الحضارة الإسلامية.

٥ ـ الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين.

٦ ـ أصول تشكيل العقل المسلم.

٧ ـ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم.

٨ ـ مدخل إلى إسلامية المعرفة.

٩ ـ تهافت العلمانية.

١٠ ـ قالوا عن الإسلام.

١١ ـ القرآن الكريم من منظور غربي.

١٢ ـ مع القرآن في عالمه الرحيب.

١٣ ـ حوار في المعمار الكوني.

١٤ ـ مقال في العدل الاجتماعي.

١٥ ـ متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة.

١٦ ـ الله أو الطاغوت: مسائل أساسية في التصوّر الإسلامي.

١٧ ـ رحلة في عالم الكتاب الإسلامي.

١٨ ـ آيات قرآنية تطلّ على العصر.

١٩ ـ آفاق قرآنية.

٢٠ ـ دراسات قرآنية.

وأنا ـ إذا أردتم الحقّ ـ لست من المكثرين أو المتباهين بكثرة ختماتي لكتاب الله... حيث كنت ولا أزال، أقرأ في اليوم الواحد نصف الجزء، مفضلاً التأمل في الآيات ومحاولة اكتشاف ارتباطاتها الموضوعية، على الهذّ عليه لإنجاز ختمة أكثر... ولا أدري أيهما أكثر أجراً!

لكنّ الأهمَّ من هذا هو التأثير النفسي لقارئ القرآن... وإنه والحق يقال لتأثير عجيب يغسل ما في النفس المثقلة بالأوجاع والهواجس والهموم، ويضعها أمام الجلال القرآني، وقد تطهّرت من هذا كله... كيف لا ونحن نقرأ في كتاب الله هذه الآية ذات الدلالة الحاسمة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣]. فنجد أنفسنا نتجاوز مواقع الحزن والندم، نعلو عليهما، نتحرر من أسرهما، وننطلق بخفة ورشاقة إلى سماوات البهجة والاطمئنان والفرح.. وفضاءاتها الكبيرة التي تذوب فيها كل أحزان الإنسان وتعاساته وخوفه وقلقه... ألم يقل القرآن بأنه: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

صدقتَ يا ربَّ السماوات والأرض، فأنت ـ جل جلالك ـ الأعلم بخلقك، والأدرى بما يصلح حالهم وينقلهم من الظلمات إلى النور.

لقد تضمَّن كتابي هذا الذي يجده القارئ بين يديه مقالاً بعنوان (الفرح الكوني)، حاولتُ أن أرصدَ فيه جلَّ القيم والمعايير التي تمسك بيد الإنسان المسلم وتأخذه إلى فوق... إلى سماوات البهجة، والاطمئنان، واليقين، والتوحّد، والفرح.... تعلو به... تحرّره... من كل صنوف اليأس، والتعاسة، والمرارة، والشقاء، والألم، والندم، والحيرة، والتخبط، والإحساس بالاختناق... وبأنه وضع في حفرة ضيقة لم يُتح له الخروج منها إلّا إلى حفرة أخرى أشدّ ضيقاً هي القبر!!

أردتُ أن أفتح الفضاء الواسع... السماء الكبيرة... الإضاءة الكونية أمام الإنسان المسلم، الذي يضيق عليه الحصار يوماً بعد يوم... أمام عقله، وضميره، ووجدانه، وروحه، وجسده... أن أقول له بأن عليه أن يكون من أكثر خلق الله فرحاً في هذا العالم... من أكثرهم تحرُّراً من المخاوف والآلام... وأن فرحه يتجاوز حدود الأنا، الجماعة، الإقليم، الأمة... والعالم... إلى الكون الذي جاء هذا الدين لكي يقيم بينه وبين الإنسان أعمق الوشائج والصلات، وأن يعقد بين الطرفين ألفة ميتافيزيقية، لم ولن يستشعرها أي إنسان إلا هذا المسلم الذي فتح وعيه على هذه المسألة الهائلة التي أُعطيت له... مساحة كونية تتجاوز الراهن إلى الأبدي،

والمحدود إلى المطلق، والزائل إلى الباقي، والجزئي إلى الكلي، والعابر إلى الدائم الذي لا ينقطع ولا يزول.

إننا كمسلمين لسنا أبناء قرن دون قرن، أو بيئة دون أخرى، أو مكان دون مكان... إنما نحن أبناء كل زمن وكل مكان... وأن كتاب الله يعلّمنا هذا... يسلّمنا المفتاح المدهش الذي نفتح به بوابات العالم والكون على مداهما... فنصبح بحقّ أناساً كونيين تغمرنا سعادة لا نكاد نجد لها مفردة في قواميس الدنيا... ولا قريناً في أفكارها ومبادئها وخبراتها، التي وإن استطاعت أن تبلغ شأواً بعيداً في التقنية والخدمات وتغطية الملاذ الحسية؛ لكنها ظلّت ولا تزال تعاني من الضمور الروحي، والإحساس بالاختناق في البيئات الضيقة، وبالتال هيمنة حالات الاكتئاب على العديد من أبنائها، وهو اكتئاب يتزايد نوعياً بما يقود المأزومين إلى غسل أيديهم من الخلاص... فيلجؤون إلى الانتحار...

إن هذا ما تقوله آخر الإحصائيات التي نشرتها وكالات الأنباء على شاشات الفضائيات: عشرة بالمئة من الأمريكيين يعانون من الاكتئاب، ويهربون إلى المغيِّباتَ التي هي أشد لعنة من الخمر... والحشيش والأفيون... وقد يلجؤون إلى الانتحار... اليابان تخصص عام (٢٠١١م) ثلاثين مليار دولار لملاحقة حالات الاكتئاب والانتحار التي تضيّق الخناق على اليابانيين... أما في السويد والنرويج، باعتبارهما من أكثر الدول تقدماً خدمياً وتقنياً؛ فإن ما يحدث فيهما من حالات الانتحار يُضرب به المثل.

وعَوْد على بدء... لقد كانت رحلتي مع كتاب الله، بمستوياتها الثلاثة: السماع، القراءة، الدراسة والبحث... واحدة من أكثر الرحلات، عبر حياتي كلها، متعة وفائدة... ولقد مارسَتْ التخفيف عني فيما كنت أعانيه من التعاسة والضيق، ونفاد الصبر، والعتمة، والقلق، والندم... ونقلتني إلى آفاق التحرّر والتوحُّد والاطمئنان والفرح واليقين...

وهذا يكفي...

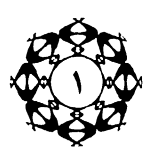
وأنا أقول في نفسي: ما أكثر أخطائي التي تتزايد يوماً بعد يوم، ربما وفق متواليات هندسية، لكن ما يعزيني، ويُدخل الاطمئنان إلى يوم الحساب في وجداني وعقلي... أنني عشت بالطول والعرض والعمق، مع كتاب الله، مستمعاً... وقارئاً... ودارساً... فلعلّ ذلك يشفع لي عند الله، جلّ في علاه، يوم الحساب!!

وأخيراً... فهذا الذي يجده القارئ بين يديه، ليس تفسيراً بالمعنى العلمي الدقيق للتفسير، ولكنه تأملات مشروعة لكل مسلم، قد تخطئ وقد تصيب...

إن كتاب الله يتمّ التعامل معه بصيغ عديدة، منها التفسير الذي ينطوي على شروط محددة مُلزِمة، والتأمّل الذي قد لا يلتزم ببعض هذه الشروط، ولكنه ـ بالمقابل ـ لن يكون مُلزِماً لأحد من الناس غير صاحبه.

وتبقى النية هي البوصلة الحقة لكل المسافرين عبر كتاب الله!!





يا حسرة على العباد

ليس تفسيراً... وحاشا لله، ولكنها مقاربة أو محاولة للفهم، قد تخطئ وقد تصيب، إلّا أن النية التي تكمن وراءها ربما تشفع لها أمام الله...

هزّتني مقاطع من سورة الأعراف... تكشّفت لي فجأة عن تصوّر للوجود، كما يعرضه كتاب الله، ما خطر على بالي من قبل بهذا الوضوح والارتباط.

ودائماً كنت أقول بأن وقفة متأملة، أو محاولة جادّة للمقاربة مع مقطع من كتاب الله قد تفتح المغاليق، وقد تكون أكثر جدوى من عشر ختمات للقرآن الكريم!

هذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه ولا يَخلق على كثر الردّ... صدقت يا رسول الله، فأنت بكلماتك هذه أوجزت المعجزة وقلت فيها ما يكفي... ولكن أين القلوب التي تحسّ، والعقول التي ترى، وكيف تكسر الأقفال التي ختمت بالشمع الأحمر على الأفئدة والأسماع والأبصار؟!

هزّتني مقاطع من سورة الأعراف، إذ وجدتني ـ فجأة ـ

قبالة حالة أو وضع يريد الله ـ جلّت قدرته ـ أن يتحقق في هذا العالم... مع الإنسان تماماً... لصالحه تماماً... على كل المستويات... سعادةً... ورفاهيةً، وتوحُّداً، وأملاً، وأمناً، وإصلاحاً، وعطاءً، وعمراناً، وعدلاً، وانسجاماً...

وإزاء حالة مضادة في الوقت نفسه، تسعى كلمات الله جلّ في علاه، إلى هدمها، وتدميرها، والانقلاب عليها، وإزالتها من الوجود... ضد الإنسان تماماً... ضد مصلحته ووضعه البشري على كل المستويات، تعاسةً، وفقراً، وتمزّقاً، ويأساً، وخوفاً، وإفساداً، وتخريباً، وكسلاً، وتشتّتاً، وظلماً...

أكثر من هذا: إن الحالة الأولى تتجاوز الوفاق مع الذات والآخر... تتجاوز المجتمع والبشرية والعالم، صوب الطبيعة والوجود والكون، لكي تجعلها جميعاً في صيغة توافقٍ، وتصادٍ مشترك، وعطاء، وتسخير، وتبادل في الأداء... يؤول في نهاية المطاف إلى أقصى حالات الانسجام بين الإنسان والعالم والطبيعة والوجود والكون... يشكل البيئة التي تتوحد فيها الظواهر والأشياء... الإيقاع الذي يتحرك، وهو يسبّح بحمد الله، ويتوجّه إليه وحده بلا شريك... وحده بلا ندّ... لكي يرتفع بالإنسان، أكثر فأكثر، يصعّد به في المراقي... يصنع الإنسان الكوني الذي يتجاوز شد الأرض وجاذبيتها إلى فوق...

وهو في مهرجانه المتسامي هذا... بالإنسان والجماعة والحياة... يستجيش كل الطاقات والقدرات البشرية: الروحية

والعقلية والحسّية والوجدانية... ويوظف كل إمكانات الطبيعة والعالم والوجود، بدءاً من دفق الضوء القمري ودفء الشمس، وانتهاء بالجبال والينابيع والجداول والأنهار والأمطار والنبات والحيوان... كلها تتلاءم وتتواءم، لكي تقدم أقصى ما تستطيع أن تقدمه للإنسان، وبأكبر قدر من الألفة الميتافيزيقية والودّ والتوحّد والمحبة والتناغم والانسجام...

والنبوّات التي تتحدث عنها مقاطع سورة الأعراف هذه، إنما هي في نهاية الأمر وبدئه، نبوة واحدة... هي الدعوة نفسها... الصوت والنداء والفاعلية المتواصلة في الزمن والمكان، من أجل الخروج بالإنسان من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده...

إن الحالة الضدّ التي تتحدث عنها الآيات البيّنات حيناً، وتتركها حيناً آخر، لكي يتملّاها الذهن كصيغة مضادة للقيم والمرتكزات الإيجابية التي ألمحنا إليها قبل قليل... هذه الحالة التي يدينها كتاب الله ويعلن الحرب عليها... ما الذي تصنعه بالإنسان... وإلى أي المآزق تقوده، وعبر أيٍّ من الطرق المعوجّة تمضي به لكي ما تلبث أن تمرّغه بالتراب، وتحجر عليه في الثقوب الضيّقة، وتدفن وجوده البشري في لزوجة الطين وشدّ الجاذبية... وتضيّق الخناق على وضعه في العالم لكي يغدو بموازاة عالم النحل والنمل والأنعام والحيوان...

تريد الحالة الأولى أن يصير الإنسان إنساناً، وأن تكون قامته

مرفوعة إلى فوق، عالية بما هي قامة إنسان أريد له أن يكون سيد المخلوقات جميعاً... وتريد الحالة الثانية أن يتضاءل الإنسان، ويتقزّم، وتنكمش قامته، وينكفئ في الجحور الضيّقة كما تنكمش الحشرات وهي تأوي إلى ثقوبها تحت الأرض، وكما تلجأ الأنعام إلى حظائرها خوفاً من البرد والمطر والزمهرير...

نداء التوحيد والنبوة هو النداء الوحيد لتحرير الإنسان من مصير كهذا... وهو الدرب الوحيد لاجتياز المحنة، والانطلاق إلى الأفق العريض المضيء المفتوح، ليس فقط على ساحة العالم، وانما على مدى الكون كلّه... وليس وراء ذلك إلّا الضياع، والحيرة، والضلال... وليس ثمة طريق ثالث... أبداً... إما هذا أو ذاك...

يعجز القلم عن ملاحقة الايماضات التي تشعّ بها آيات سورة الأعراف تلك... التعبير عن العالم الجميل السعيد المتوافق المضيء، الذي ترسمه وتومئ إليه... وعن نقيضه البشع... الشقي... الممزق... المعتم الذي تحذّر من الاندفاع إليه...

يعجز القلم... رغم أنه يملك مفردات واحدة من أكثر لغات العالم خصباً، عن أن يحقق التغطية الشاملة لكل المعاني التي تفجّرها كلمات الله... لكل الومضات التي تنقدح في الذهن والوجدان، قبالة هذا المقطع أو غيره، فلا تقدر اللغة ـ مهما دقّت ورقّت ـ أن تعبّر تماماً، وبالصدق المطلوب، عما يتشكل في ذهن الإنسان ووجدانه، فيما تريد الآيات البيّنات أن تقوله، وترسمه، وتغري به، وتحضّ عليه.

مهما يكن من أمر، فإنها مرة أخرى، محاولة للفهم... مقاربة، كما يصطلح الأدباء المحدثون، لحافات المنظور القرآني للعالم والحياة... ولعلّ هذا يكفي...

في مساحة لا تتجاوز الصفحات الستّ... وعبر عدد من الآيات لا يتجاوز البضع والأربعين من سورة الأعراف، يتحدث كتاب الله عن هذا كله... يمنحنا ـ بعبارة أدق ـ هذا كلّه... فمن يختار بعدها التعاسة على السعادة، والتمزق على التوحّد، والحزن على الفرح، والظلم على العدل، والانكماش على الانتشار، والقيد على الحرية، والجحور الضيقة على الفضاء الواسع، وضيق الدنيا على سعتها، وجور الأديان على عدل الإسلام، وعبادة العباد والآلهة والطواغيت والظنون والشهوات والأهواء على عبادة الله وحده، والتمسّك بحبله الذي تنقطع دونه الحبال... وبسلّمه الواصل بالخلود... وبعلمه اللدنّي ذي المصداقية المطلقة الذي يعلو على المتغيّرات والنسبيات، والذي تتضاءل دونه وتتهافت كل المعارف والعلوم التي لا تستهدي بهديه، ولا تتلقى عنه الضوء والإشارة...

في مساحة لا تتجاوز الصفحات الستّ يجد المرء نفسه قبالة عقيدة ليست كالعقائد، ودين ليس كالأديان، وعبادة ليست كالعبادات... ويجد معها حالة من الحزن والشجن على الإنسان الضائع، والمسيرة البشرية التائهة التي تتقاذفها الطواغيت والأرباب، والمصير الأسود الكالح الذي يُساق إليه بنو آدم، بقوة الإغراء الشيطاني، المضلّل، المخادع، الدجال... ويتذكر الآية

الكريمة، والنداء الإلهي المؤثر، المحزن: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

ويتذكر، بالأسى والشجن نفسه، وعد الله وأكذوبة الشيطان: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].

بإيجاز بالغ: إنه الصراط الذي تصوغه وتضيئه عبادة الله وحده...

وليس ثمة وراءه، قبله أو معه أو بعده، إلّا التيه والتخبّط والضلال... لأنه ما من طريق، غير هذا الطريق، إلّا وهو من عمل الشيطان الذي يسوق عباده إلى مصيدة الشرك، والتعدّد، والضياع...

وما لنا ألّا نقرأ معاً المقطع المذكور من سورة الأعراف لكي نتدبّر معاً ما تريد أن تقوله لنا آياته البيّنات:

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا

وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢ ـ ٥٨].

في مقطع قرآني لا تتجاوز آياته السبع عدداً نجد أنفسنا قبالة حوارٍ محتدم، أو مجابهة حاسة ـ بعبارة أدّق ـ بين قيم الخير والشر... بين الاستقامة والاعوجاج، وبين الهدى والضلال... بين حياة آمنة، عاملة، مبدعة، متجددة، طيّبة يدعونا إليها القرآن... وحياة وجلةٍ، ساكنة، مفسدة، نكدة، خبيثة، ميّتة... يغرينا بها الشيطان...

في الخطاب القرآني نجد أنفسنا ازاء مفردات العلم، والهدى، والرحمة، والحق، والعمل، والإصلاح، والإحسان، والبشرى، والطيب، والبعث، والشكر... وفي الإغواء الشيطاني نجد أنفسنا إزاء مفردات: النسيان، والخسران، والضلال، والافتراء، والعدوان، والإفساد، والموت، والخبث، والنكد...

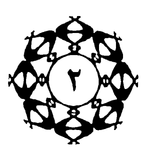
فمن منّا يرتضي لنفسه أن يذهب مع الثانية ويتجاوز الأولى، فيضع نفسه في دائرة الضنك والضيق والتعاسة والضلال؟!

إنها صفقة خاسرة بكل المعايير... ومن أجل ذلك يمضي المقطع التالي في كتاب الله، عبر رحلة مكثفة مع النبوّات وهي ترفع الخطاب نفسه، على تقلّبها في الزمان والمكان: ﴿أُبَلِّغُكُمْ

رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣].

ومرةً أخرى نتذكر ـ ونحن نتابع مأساة الإنسان الضائع في العالم، المتكّبر على النصح، المتأبّي على الصلاح، المتخبّط في مصيدة الشرّ والضلال ـ نتذكر النداء الإلهي المؤثر المحزن: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].



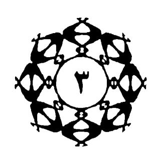


الغيب يخترق المنظور

بعد تفجير القنبلة الذرية ومِن بعدها الهيدروجينية والنيوترونية، تبيّن كم أن الواقع المنظور لا يعدو أن يكون قشرة هشّة سريعة التكسّر، وأن ما وراءها، تحتها تماماً، على بعد خطوات منها، مخفية عن العيان، ومنطوية في عالم الغيب... قوى هائلة تفوق التصوّر، وتؤكد الحقيقة القرآنية التي طالما أشار إليها وأكدّها كتاب الله مراراً وتكراراً، من أن عالم الغيب أشدُّ ثقلاً وحضوراً من العالم المشهود.

والظاهرة لا تقتصر على الغيب الفيزيائي وحده ـ إذا صحّ التّعبير ـ ولكنها تمتد لكي تشمل الخلائق كافة، والقوى والطاقات الهائلة التي ينطوي عليها الكون، مروراً بالملائكة والجانّ، ووصولاً إلى كلمة الله التي إذا أرادت شيئاً فإنما تقول له **(كن، فيكون)**.





ماذا لو رُفع الغطاء؟

أيَّةُ قوة هائلة، مطلقة الإسار، غير محدودة، تنطوي عليها كلمة (كن) هذه؟ أيَّةُ فاعلية جبارة لا يقف أمامها شيء، تملك هذه القدرة اللامحدودة على الخلق والإنشاء: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]... ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

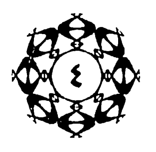
والعقل البشري الذي لا يزال، رغم كشوفه المدهشة، طفلاً يحبو عند حافات الكون، لن يكون بمقدوره إدراك ما تعنيه كلمة (الغيب)، وما تنطوي عليه من قوى خلّاقة، هائلة، غير محدودة...

هايزنبرغ وشرودنجر وأينشتاين وماكس بلانك، والفيزيائيون والكوزمولوجيون الذين جاؤوا بعدهم، فتحوا في القشرة المنظورة ثغرات ضيقة جداً، فرأوا الأعاجيب، وكانت القنبلة الذرية واحدة من ثمار هذه الأعاجيب... ترى ماذا لو رُفع الغطاء كلّه؟ ما الذي سنراه؟

القرآن الكريم يجيبنا على جانب من هذا السؤال المخيف،

عندما يتحدث في سلسلة متواصلة من آياته البيّنات عن الانقلاب الكوني يوم القيامة، هذا جانب من المشهد:



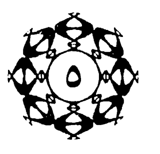


لقطات قرآنية للانقلاب الكبير

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ٦]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ١ ـ ٤]، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٦ ـ ٩]، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٥]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١ ـ ٥]، ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٦ ـ ١٠]، ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧ ـ ٣٨]، ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ١ ـ ٦]، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ

﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣ ـ ١٦]، ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ٨ ـ ١٠]، ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ٧ ـ ١٠]، ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٨ ـ ١٥].



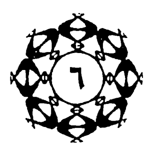


الهوْل!!

«وأما تسجير البحار، فقد يكون معناه ملؤها بالمياه. وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتي يقال أنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها. وإما بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها في بعض. وإما يكون معناه التهابها وانفجارها كما قال في موقع آخر ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾. فتفجير عناصرها وانفصال الأيدروجين عن الأوكسجين فيها، أو تفجير ذرّاتها على نحو ما يقع في تفجير الذرّة، وهو أشدّ هولاً. أو على أي نحو آخر. وحين يقع هذا فإن نيراناً هائلة لا يُتصور مداها تنطلق من البحار. فإن تفجير قدر محدود من الذرّات في القنبلة الذرية أو الأيدروجينية يُحدث هذا الهول الذي عرفته الدنيا، فإذا انفجرت ذرّات البحار على هذا النحو أو نحو آخر؛ فإن الإدراك البشري يعجز عن تصوّر هذا الهول، وتصوُّر جهنم الهائلة التي تنطلق من هذه البحار الواسعة»[1].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ط ٣٧، دار الشروق، القاهرة ـ ٢٠٠٨م، ٦/٣٨٣٩.



فماذا عن خفايا الإنسان؟!

هذا عن العالم والكون، فماذا عن الإنسان؟

ألكسيس كاريل في (الإنسان ذلك المجهول)، ومن أجل تأكيد عجز الإنسان، ونسبية معرفته عن معجزة العقل، وطرائق عمل الدماغ البشري، يؤكد بأن العلم الطبيعي إذا كان قد أوغل في كشوفه، وقطع المسافات الطوال بخصوص الظواهر الطبيعية، فإنه يكاد يحبو ويتعثر في فهمه لخبايا النفس البشرية... يقول: «إنّنا بتعلُّمنا سر تركيب المادة وخواصّها استطعنا الظفر بالسيادة تقريباً على كل شيء موجود على ظهر البسيطة، فيما عدا أنفسنا...

إن علم الكائنات الحية بصفة عامة ـ والإنسان بصفة خاصة ـ لم يصب مثل هذا التقدم... إنه لا يزال في المرحلة الوصفية... فالإنسان كلٌّ لا يتجزأ وفي غاية التعقيد، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له، وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه أو في أجزائه في وقت واحد... فكلٌّ واحد منّا مكوّن من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة!

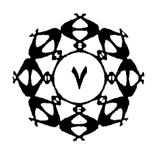
وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظلّ بلا جواب.

إن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية، ما زالت غير معروفة... ونحن لا نملك أي فن يمكّننا من النفوذ إلى أعماق المخ وغوامضه، أو إلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه... وعلينا أن ندرك بوضوح أن علم الإنسان هو أصعب العلوم جميعاً»[(١)].



---

(١) ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت ـ بدون تاريخ، مقتطفات من الكتاب المذكور.



ضعيفة ومتلجلجة!

وسوليفان في (حدود العلم)، وبعد دراسة مستفيضة في نظريات علم النفس كافة، يخلص إلى أنه ليس في هذه النظريات «شيء من شأنه أن يغيّر جدّياً في قناعتنا بأن هذا العلم لا يمكن اعتباره علماً حتى الآن. وللمعارف الأخرى أيضاً مثل علم الاجتماع والاقتصاد وما إلى ذلك، بعض النواحي التي لا تعتبر مرضية من وجهة النظر العلمية. والعلم هو أقوى ما يكون عليه عندما يتناول العالم المادي. أما مقولاته في المواضيع الأخرى، فتعتبر نسبياً ضعيفة ومتلجلجة»[١].

وهي النتيجة نفسها التي انتهى إليها ألكسيس كاريل في (الإنسان ذلك المجهول)... إن السيطرة على عيّنة من العالم المادي لغرض فهمها ممكنة إلى حدّ ما، أما السيطرة على عينة يدخل فيها الإنسان، والعقل، والحياة، والروح، طرفاً، فتكاد تكون

---

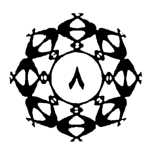
(١) ج. سوليفان، حدود العلم، الدار العلمية، بيروت ـ ١٩٧٢م، ص ٦٠ ـ ٦١.

مستحيلة... والنتيجة التي نصل إليها في هذا المجال «ضعيفة ومتلجلجة».

ومن قبل سُئل الرسول ﷺ عن الروح: معجزة الإنسان، وسرّ العقل، ومفتاح الحياة، فأجاب القرآن عنه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُـم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].







كتلة الجليد العائمة

بل إن الفيزيائيين الكبار الذين أشرنا إليهم كشفوا عن حقيقة أخرى: إنه حتى الكشوف الفيزيائية المتعاملة مع المادة والطاقة والضوء والكتلة... لم تبلغ حافات اليقين، وأن نسبة الاحتمال فيها كبيرة... وكبيرة جداً. وأنها تنطوي على أعماق غائرة مغيّبة عن الأنظار، وعن أكثر الأجهزة التقنية قدرة على الكشف والإيغال.

ومن الواضح، كما يقول سوليفان، أن حقيقة كون العلم مقصوراً على معرفة البنى، وليس الماهيات، هي حقيقة ذات أهمية إنسانية عظيمة، لأنها تعني أن مشكلة طبيعة الحقيقة لم يبتَّ فيها بعدُ، ولم يعدْ يُطلب إلينا الآن أن نعتقد بعدم وجود مقابل موضوعي لاستجابتنا للجمال... إن تطلعاتنا الدينية وحسّنا الجمالي ليسا بالضرورة ظواهر وهمية، كما جرى الافتراض في السابق[١]...

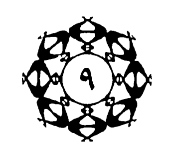
ما الذي نخلص إليه من هذا العرض الموجز سوى أن عالم

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٩ ـ ٤٠.

الشهود لا يعدو أن يكون بقعاً صغيرة ومنحسرة في البنية الكونية، وهو كذلك في النفس البشرية، بتقلّباتها التي لا حدود لها، وبطرائق عمل الدماغ البشري... حيث لا يبدو في معظم الأحوال سوى الخمس من كتلة الجليد العائمة، بينما تظل الأخماس الأربعة الأخرى مغيَّبة عن الأنظار، باعتبارها عالماً غيبياً.





القرآن والغيب

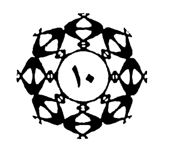
في ضوء ذلك كله، ألا يتحتم علينا أن نرجع إلى القرآن الكريم مرة ومرتين وثلاثاً، وعشرين مرة، لمتابعة ما الذي يريد أن يقوله بخصوص ازدواجية الظاهرتين الكونية والإنسانية، ما بين الشهود والغيب؟

أربع وخمسون مرة ترد كلمة (الغيب) باشتقاقاتها المختلفة، في كتاب الله سبحانه وتعالى، مما يدلّ على الثقل الكبير والحضور المؤكد اللذين أَولاهما القرآن الكريم لعالم الغيب، بل إن نقطة الارتكاز الأساسية في الإيمان، والتي وردت في الآية الثالثة من سورة البقرة، هي الإيمان بالغيب: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣].

بعدها تتوالى الآيات لكي تعرض الحقيقة الغيبية وتتعامل معها، من أكثر من زاوية، وعلى أكثر من مستوى... ولسوف نستدعي ها هنا شواهد محدودة فحسب من هذه الآيات قدر ما يسمح به مقال كهذا: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:

٣٣]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨]، ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور: ٤١]، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، ﴿قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].





التسبيح الحرّ!

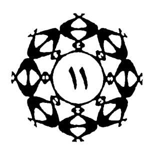
ومن عجب أن واحدة من أحدث النظريات التي طرحها عدد من كبار العلماء في مطلع السبعينيات ونُشرت خطوطها العريضة مجلة (العلم والحياة) الفرنسية، تقول بالمقابل أو المعادل اللامادي للتراكيب المادية في البنية السديمية والذرّية على السواء، وأنه ما من إلكترون أو بروتون أو نيوترون أو جسم كوني كذلك، إلا وتوجد قبالته معادلته اللامادية. ومعنى هذا أن أكثر النظريات الفيزيائية حداثة تقدم تأكيداً أشدّ على تهافت المادية، وتشير بلسان العلم المختبري والمعادلات الرياضية المركّبة إلى التواجد الروحي في قلب الكون، وفي صميم الذرّة.

وإننا لنقف خاشعين أمام واحد من جوانب الإعجاز القرآني، تلك المجموعة من الآيات الكريمة التي تحدثنا عن تسبيح الكون، والطبيعة، والذرّات للخالق العظيم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١، الحشر: ١، الصف: ١]، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ

خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

إن (التسبيح) ها هنا لا يقتصر على كون الذرّات والأجسام الفضائية تخضع للنواميس التي وضعها الله فيها، فهي بهذا تسبح بحمد الله ﷻ، فهنالك ما هو أبعد من هذا وأقرب إلى مفهوم التسبيح الحرّ، أو التقديس الواعي!! وإن هذا ليقودنا إلى مقولة أدينغتون من أن (مادة العالم هي مادة عقلية)، كما يقودنا إلى الآية الكريمة: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].





مفاتح الغيب والكشوف الفيزيائية

إننا ـ على سبيل المثال ـ عندما نقرأ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦] يتجه فكرنا على الأغلب، إلى العالم اللامنظور، الكائنات اللامرئية، الوجود المغيّب عن الأنظار: الملائكة، الجانّ، الشياطين، الجنّة، النار... إلى آخره... أو ـ حتى ـ الأرزاق المقدّرة من السماء؛ ولكنه نادراً ما يتجه إلى ما ينطوي عليه الكون من طاقات وأسرار مغيّبة، فيزيائية هائلة، لا يتصورها عقل... ولقد قُدّر للإنسان أن يطّلع على جانب ضئيل منها عندما فجّر الذرّة... ولكن ماذا بخصوص الذي لم يُكتشف أو يُفجّر بعدُ من طاقات وأسرار الكون التي يمسك الله ﷻ بمفاتيحها، أو ينزّلها بقدر معلوم؟

إن الانقلاب الكوني الكبير يوم القيامة، والذي أشرنا إلى بعض شواهده، قد يقرّبنا بعض الشيء... تلك الآيات التي تحدثنا عن انفطار السماء، وانتثار النجوم، وتكوير الشمس، وتسجير البحار، ودكّ الجبال...

إن علينا أن نقف طويلاً عند عبارة (مفاتح الغيب) وعبارة (السرّ في السماوات والأرض)، ونتجاوز تسطيح التفاسير القديمة، ونستدعي أكثر الكشوف الفيزيائية والكوزمولوجية جدّة وحداثة، لكي ندرك أبعادهما المدهشة والمذهلة، ولكي يتبيّن لنا ـ بحق ـ أن كتاب الله ﷻ، وكما حدثنا رسول الله ﷺ: «لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد».

(إن حقيقة الغيب من مقومات التصوّر الإسلامي الأساسية، لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية، ومن قواعد الإيمان الرئيسية، وذلك أن كلمات (الغيب) و(الغيبية) تُلاك في هذه الأيام كثيراً ـ بعد ظهور المذهب المادي ـ وتوضع في مقابل (العلم) و(العلمية).

والقرآن الكريم يقرر أن هناك (غيباً) لا يعلم (مفاتحه) إلا الله، ويقرر أن ما أوتيه الإنسان من العلم قليل، وهذا القليل إنما آتاه الله به بقدر ما يعلم هو ـ ﷻ ـ من طاقته ومن حاجته، وأن الناس لا يعلمون ـ فيما وراء العلم الذي أعطاهم الله إياه ـ إلا ظنّاً، وأن الظنَّ لا يغني من الحق شيئاً.

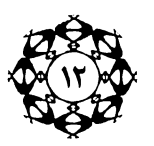
كما يقرر ـ ﷻ ـ أن الله قد خلق هذا الكون، وجعل له سنناً لا تتبدل، وأنه علّم الإنسان أن يبحث عن هذه السنن ويدرك بعضها، ويتعامل معها ـ في حدود طاقته وحاجته ـ وأنه سيكشف له من هذه السنن في الأنفس والآفاق ما يزيده يقيناً وتأكّداً أن الذي جاءه من عند ربه هو الحق، دون أن يخلَّ هذا الكشف بسنن

الله التي لا تبديل لها، بحقيقة (الغيب) المجهول للإنسان، والذي سيظلّ كذلك مجهولاً...)[١].



---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٧/١١١٣ ـ ١١١٤.



وشهد شاهد من أهلها

وأريد أن أختم مقالي الموجز هذا بثلاث شهادات لعلماء غربيين كبار قالوا كلمتهم في ثنائيتي العلم والإيمان والغيب والمنظور:

سوليفان: (لقد أصبح العلم شديد الحساسية ومتواضعاً نسبياً. ولم نعد نلقن الآن أن الأسلوب العلمي هو الأسلوب الوحيد الناجح لاكتساب المعرفة عن الحقيقة. إن عدداً من رجال العلم البارزين يصرّون بمنتهى الحماس على حقيقة مؤداها أن العلم لا يقدّم لنا سوى معرفة جزئية عن الحقيقة، وأن علينا لذلك أن لا نعتبر أو يُطلب إلينا أن نعتبر كل شيء يستطيع العلم تجاهله مجرد وهم من الأوهام)[١].

أينشتين: (إني أدين بالتبجيل كله لتلك القدرة العجيبة التي تكشف عن نفسها في أضأل جزيء من جزيئات الكون)[٢].

---

(١) سوليفان: حدود العلم، ص ٣٢ ـ ٣٣.

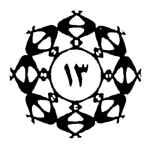
(٢) ينظر: توفيق الحكيم، الأحاديث الأربعة، مكتبة الآداب، القاهرة ـ ١٩٨٣م، ص ٢٧.

الفريد كاستلر: (إننا كلما أوغلنا في دراسة المادة أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئاً... فسوف يظل دائماً شيء مخفياً عنا» فلما سألوه، مخفيٌّ بمن؟ أجاب: بالله! ثم وصف متاعبه في استمرار البحث بالقوانين المعروفة، إذ اكتشف أنه بعد التوغل إلى أمد بعيد توقفت القوانين عن العمل، وأنه دخل مرحلة لم تعد تسري فيها هذه القوانين الطبيعية المعروفة في الأرض، مما جعله يسأل نفسه: أترى علم الفيزياء الذي نمارسه في الحقيقة ليس علماً واحداً؟ أي أنه يوجد علمان كل منهما يعمل مستقلاً عن الآخر: علم للمرئيات، وعلم للمخفيات... أو بعبارة أخرى علم للمحسوسات أو لهذه الدنيا، وعلم فيزياء آخر لغير المحسوسات، أي لغير دنيا البشر، أي للآخرة... وكلٌّ منهما له قوانينه الخاصة التي لا تسري إلّا على عالمه)[١]!!



---

(١) ينظر المرجع السابق نفسه، ص ٢٨، نقلاً عن كتاب كاستلر: المادة هذا المجهول.



حول معجزة الإمطار

وهذه أخرى من معجزات الإبداع الإلهي في العالم... إنها معجزة الإمطار... إيصال القطرة العذبة إلى أفواه الناس... والضرع... والزرع... من أجل أن تستمر الحياة...

ونحن نعلم، على مستوى الرياضيات والفيزياء، أن حدوث ظاهرة ما بمفردها قد يكون وليد الصدفة التي لا هدف لها ولا غاية... ولكن عندما تنبني عليها حالة ثانية لكي تقودها إلى هدف محدّد، فإن الصدفة تضعف وتغيب وتتلاشى... فكيف إذا انبنت عليها ثماني حالات توافقية أخرى؟ ألا يتوقف مؤشر الصدفة عند نقطة الصفر المطلق، لكي يسمح للغاية أن تعمل عملها في هذه الظاهرة المدهشة، التي طالما نبّه كتاب الله عليها قرّاءه في أكثر من مئة وستين آية أو مقطع قرآني، لكي يتأكدوا بما لا يسمح لأي مجال للجدل والمناقشة، أن وراء ظاهرة الإمطار هذه إرادة علوية، قديرة، فاعلة، مبرمجة، هي التي ترتب الأسباب على المسببات، وتسوق الأوّليات إلى نتائجها المحتومة... وهي ها هنا إيصال الماء العذب للإنسان والحيوان والنبات على السواء، بعد

جملة من العمليات الكبرى التي يعقب بعضها بعضاً، والتي في حالة غياب أية حلقة منها، ستبوء المحاولة إلى الفشل المحتوم.

إننا هنا بإزاء ثماني حلقات محكمة الأداء، يقوم بعضها على البعض الآخر، لكي ما تلبث أن تؤول في نهاية الأمر إلى المطلوب... والمطلوب هو إدامة الحياة البشرية والطبيعية بإيصال الماء العذب لسقيها وإدامتها، والذي لولاه لتوقفت عجلة الحياة في أيام معدودات... فها هي ذي الحياة تجتاز آلاف السنين وهي ضامنة حقها في الحصول على الماء، من لدن خالق السموات والأرض... ومبدعها... جلّ في علاه...

نقطة البداية تتمثل في تكوين هذا الخزين الاستراتيجي الهائل من الماء في البحار والمحيطات التي تغطي خمسة أسداس كرتنا الأرضية هذه، فلا يتعرض للنفاد، أو الجفاف، حتى لو مضى عليه آلاف السنين ومئات آلافها... إنه بحق خزين استراتيجي محسوب حسابه في علم الله: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]، ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾

[الكهف: ١٠٩]، ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠]، ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

ومن أجل أن تظلَّ أعماق هذا الخزين صالحة للحياة، فإن مياهه المتجمدة يخف وزنها ـ بإرادة الله ﷻ ـ لكي ما تلبث أن ترتفع إلى السطح، ويبقى ما دونها في حالته السائلة.

ولكن السؤال الذي يبرز ها هنا: ماذا لو تحرّك هذا الخزين في عمليات سونامي شاملة كبرى وطغى على السدس المحسور من اليابسة، ألا يعني ذلك غرق الحياة الدنيا وبوارها في دقائق معدودات؟

ها هنا، وبعد التخزين الكبير تجيء موافقة أخرى تنبني عليه... إنها (التسكين) الذي طالما حدثتنا عنه آيات القرآن الكريم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]، ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٠].

إذن بعد عملية التخزين الكبير تجيء عملية التسكين المدهش الذي يلجم مياه البحار والمحيطات عن أن تتحرك وتثور وتطغى

على اليابسة فتقضي على الحياة... هذا إلى دقة وإحكام التوزيع الحراري للكرة الأرضية، الذي يحمي الكتل القطبية من الذوبان والطغيان على اليابسة...

ونحن نعلم أن الماء الساكن سرعان ما يتعرض للفساد، ويصبح بيئة صالحة للعفن ولأنواع لا تحصى من الميكروبات، التي بمقدورها أن تغزو اليابسة وأن تدمر الحياة على الأرض في مديات زمنية قصيرة... وقصيرة جداً... وهنا تجيء العملية الثالثة (التمليح): وضع الملح في مياه البحار والمحيطات لحفظها من الفساد، حتى لو مضى عليها آلاف السنين... يا سبحان الله... ألى هذا الحدّ تمضي عملية الإمطار بغائيتها المحكمة إلى هدفها دونما أي قدر من الخلل والاضطراب... وأية صدفة هي تلك التي ترتب الأسباب على المسببات، فتخزّن وتسكّن وتملّح وفق ترتيب قصدي تديره إرادة عليا، وتغيب فيه أية صدفة على الإطلاق؟! ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢].

ولكن ماذا عن تحويل هذا الماء المالح الذي لا يمكن شرابه إلى ماء عذب صالح للشرب والسقي والاستخدام اليومي؟ ها هنا تنبني عملية رابعة على مسار الظاهرة... وهي عملية (التبخير) التي تفكّ الارتباط بين ملوحة مياه البحار والمحيطات وبين عذوبتها، بتسليط قدر مناسب من الحرارة على سطح هذا الخزين

الهائل من الماء وتحويله إلى حالة بخارية خفيفة تمكّنها من الارتفاع إلى فضاء البحار والمحيطات وقد رشح منها ملح البحار!!

فمن الذي وضع الشمس، هذا الفرن الذري المتفجر منذ آلاف السنين، والموضوع في مكانه المناسب تماماً من الأرض، والذي يدفع إليها بالنسبة المعقولة من الحرارة لكي تمارس عملية التبخير... فضلاً عن إسهامها في عملية التمثيل الكلوروفيلي الذي تتشكل بموجبه الثمار والبذور والتي بدونها لن تتمكن الحياة من الاستمرار لأسابيع معدودات... ومن الذي وضع الأرض في مكانها المناسب من الشمس؟ فلو أنها ابتعدت عنها قليلاً لتجمدت الحياة وقُضي عليها، ولو أنها اقتربت منها قليلاً لتعرضت للاحتراق؟!

مَن غيرُ الله ﷻ ومشيئته المطلقة في ترتيب حلقات الظاهرة وبناء بعضها على بعض بهذا القدر من الأحكام الذي يستهدف غاية محددة، ألا وهي إيصال القطرة العذبة إلى أفواه الناس... وإلى ضرعهم وزرعهم؟ مَن غيرُ الله جلّت قدرته؟!: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣].

ولكن، رغم هذه العمليات الأربع: التخزين، التسكين، التمليح،

التبخير... لم يصل بعدُ شيءٌ من الماء العذب إلى الإنسان وإلى ضرعه وزرعه...

هنا تجيء العملية الخامسة، بإرادة الله وحده (التحريك)، وذلك بتسخير الرياح لتحويل هذا الكمّ الهائل من البخار المعلّق في سماوات البحار والمحيطات، إلى سماء اليابسة، استعداداً لنزول المطر... وإذا بنا نجد أنفسنا قبالة رياح تتشكل وتتحرك باتجاهات مختلفة، تذكّرنا بآليات المكائن والأجهزة الميكانيكية التي تتحمل مسؤولية الحركة ذات اليمين وذات الشمال، وإلى أعلى وإلى أسفل... فهناك الرياح الموسمية، والعكسية والبخارية والإعصارية... و... و... تندفع بكل اتجاه لكي تمارس مهمتها بالعدل والقسطاس فتوزع السحب على أكبر قدر من اليابسة... يا سبحان الله على هذا الإتقان الحكيم، والتصميم الإلهي الذي لا يندّ عنه شيء في الأرض ولا في السماء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٤٩]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الفرقان: ٤٨]، ﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦]،

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]، ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

وفي هذه الآية الأخيرة تحسم الأمور!! فإن الذين لا يدركون هذا الاهتمام المنضبط، الذي يبني حلقات الظاهرة بعضها على بعض، والتي إذا غاب أو تعطل أيٌّ منها؛ تعطلت الظاهرة وتوقفت عملية إيصال الماء العذب إلى الناس وإلى ضرعهم وزرعهم، وتوقفت معها الحياة عن الاستمرار...

الذين لا يدركون هذا كله، ويطرحون نقيضه فيما يسمى (بالمادية الديالكتيكية)، التي تفسّر كل الظواهر الكونية والطبيعية تفسيراً كمِّياً يتغير إلى معطيات نوعية، دونما إرادة فوقية مريدة، تملك القدرة على هذا التحويل المقصود... هم فعلاً قوم لا يشغلون عقولهم، بخلاف أولئك الذين أدركوا الظاهرة، وفسّروها التفسير العلمي العقلاني الذي لا تتم إلا به، وبالتالي يصفهم كتاب الله بأنهم (قوم يعقلون)!!

ولكن، مرة أخرى، فرغم هذه العمليات الخمس: التخزين، التسكين، التمليح، التبخير، والتحريك، فإن الناس وضرعهم وزرعهم لم يتلقَّوْا بعدُ شيئاً من الماء العذب الذي يديمون به حياتهم ويقضون حاجاتهم.

فما تلبث الحلقة السادسة أن تجيء: تحويل الحالة البخارية للماء المعلق في سماوات الأرض القريبة، إلى حالة سائلة، بتلقيح السالب بالموجب وتشكيل القطرات العذبة الثقيلة التي تشدّها

جاذبية الأرض إلى التساقط مطراً على الأرض: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

ها هي ذي حلقة سادسة تدخل على العملية، لكي تسوقها إلى غايتها... إنها حلقة (التلقيح) التي تعيد الماء إلى حالته السائلة من أجل أن ينزل مطراً يبعث الحياة في الموات، ويحيي الأرض بعد موتها...

ومع ذلك نسمع العديد من الأغبياء يقولون انها الصدفة!! أية صدفة هذه التي تبني تلك الحلقات المحكمة بعضها على بعض لكي تحقق المطلوب بقصدية أريد لها منذ البدء أن تصل عبر هذا الممر الطويل من العمليات إلى غايتها المحسوبة؟!

ولكن رحمة الله ﷻ لا تقف عند هذا الحدّ وحاشاه... حيث إذا نزلت المطر دفعة واحدة لم يستفد منها الإنسان وضرعه وزرعه، كاملة، وانما هو العشر أو أقل من العشر، وتمضي الأعشار التسعة الأخرى عائدة مع اندفاع السيول والأنهار، إلى البحر كرة أخرى...

ومن ثم تشاء حكمته أن تنبني على حلقة (التنزيل) السابقة حلقة أخرى هي (توزيع) هذا الكمّ الهائل النازل من السماء، وبتقسيم عادل، إلى ثلاثة أقسام: يمضي أولها لكي يغذي الجداول والأنهار... وينزل ثانيها إلى أعماق الأرض لكي يخزن في مخازنها الجوفية... ويجمد الثلث الأخير عند قمم الجبال وسفوحها لكي ما يلبث أن يكون خزيناً دائماً لمياه الأنهار في مواسم الصيهود... والحر... والجفاف... وانخفاض مستويات الماء.

يا الله!... كم أنك جلّ جلالك سخيٌّ عادل مع عبادك، الذين لم يقدّر معظمهم نعمك العظمى عليهم، ومضوا يضربون ذات اليمين وذات الشمال... بينما الصراط العدل الذين منحتهم إياه، بأديانك المنزلة من السماء واضح بيّن كنور الشمس... يقودهم عبر أكثر الطرق والممرات استقامة إلى أهدافهم... ولكن واأسفاه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦٢].

إن عدد المفردات القرآنية عن الظاهرة التي بين أيدينا يبلغ (١٦٢) مرة، وترد مفردة (المطر) بدلالاتها اللغوية المختلفة في كتاب الله فيما يقرب من الخمسين مرة: الماء، الصيّب، الوابل، الطلّ، المدرار، البركات، الغيث، الفرات، الفجاج...

ذلك أن بيت القصيد في الحلقات الثمانية هو (المطر)، فهي التي طالما وصفها القرآن بأنها تحيي الأرض بعد موتها، وتسقي الأناسيّ والأنعام والزرع، وتخرج الثمرات المختلفة الألوان... ونبات كل شيء... وتمنح الرزق للعباد... وتزين الحياة الدنيا... وتنبت الحدائق ذات البهجة... وتبدع الأزواج من شتى الصنوف، وتفتح على الناس البركات، وتملأ ساحات العالم بالخضرة الواعدة، وتنشئ جنات النخيل والأعناب والقضب والحبوب والزيتون والرمان: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل: ٦٥]، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ

﴿أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨ ـ ١٩]، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ ـ ١١]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٤ ـ ١٦]، ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]، ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١١].

ولكن تبقى المعجزة الكبرى للإمطار، أنها تجيء الأرض بعد موتها: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل: ٦٥]،

﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ [الفرقان: ٤٩]، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١]، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]، ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ ـ ١١]، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: ٢٤]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

فإذا كان هذا الإحياء لا يجيء إلا بعد سلسلة محكمة من الحلقات الفيزيائية التي يعقب بعضها بعضاً، ويقود بالتالي إلى إنزال المطر الذي يحيي الموات بإرادة الله ﷻ، وقوله للظواهر والأشياء: كوني فتكون... أفلا يكون بعث الموتى يوم القيامة الوجه الآخر لقدرة الله ﷻ على الأمر نفسه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١]، ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ

ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ ـ ١١].

وفي الاتجاه المعاكس تماماً يضرب الله المثل على زوال الحياة الدنيا بالماء النازل من السماء الذي يختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

الموت والحياة... الفناء والانبعاث... الاخضرار والهشيم... كلها بيد القدرة الإلهية المبدعة، التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، والتي إذا أرادت شيئاً أن تقول له: **كن فيكون**... وها هو المطر ينزل وفق هذا المسلسل المدهش من الحلقات المتماسكة التي ينبني بعضها على بعض، يعطينا شاهداً من بين مئات الشواهد وألوفها، على قدرة الله ﷻ على الاثنتين معاً: الموت والانبعاث: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: ١٠ ـ ١١].

والآن... فإن تكنولوجيا العالم كله، على تقدُّمها الأسطوري المدهش، لا يمكن أن تقوم مقام الصنع الإلهي بإنزال المطر بهذا الكمّ الهائل الذي يغطي مساحات الأرض... ولقد جرت محاولات

في هذا السبيل ولكنها في نهاية الأمر لم تأت بطائل على الإطلاق... ومن ثم كان الإذعان لأمر الله سبحانه وتعالى، حتى من أشد الناس كفراً ومروقاً: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠].

ومن نعم الله سبحانه وتعالى أن الماء النازل من السماء مبارك وطهور وعذب فرات من أجل أن يؤدي وظيفته الكاملة ليس للشرب فحسب، بل للاستعمالات اليومية كافة بما فيها الوضوء، والاستحمام والطبخ وغسل اليدين والملابس والأثاث: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩]، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

ومن نعمه كذلك أن ينزل الماء بقدر... وإلا سيكون وبالاً على الحياة... ولسوف يغرق الأخضر واليابس فيفقد وظيفته الأساسية في إدامة الحياة وصيرورتها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١]، ﴿وَلَوْ

بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

ولطالما ربط القرآن بين إنزال المطر، هذا الخير العميم للبشرية ولضرعها وزرعها... ولإدامة الحياة وتنميتها، وبين سلوك الأقوام والجماعات... إنه الوعد الإلهي لأولئك الذين يلتزمون الصراط، ويستجيبون لكلمات الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

ولكنَّ عدل الله يمضي لكي يُديم الحياة حتى بالنسبة لمن لا يؤمنون... من أجل منحهم الفرصة كاملة وامتحانهم لعلهم يرجعون: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]، ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا

ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

إنها سنن الله العاملة في الكون والطبيعة والحياة، وهو جلّ جلاله القائل: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ويضرب الله سبحانه وتعالى بالمطر النازل من السماء، الأمثال للناس، وهي تجيء بمثابة تعاليم مجسدة في صور حسية منظورة، لعلها تقودهم إلى الصواب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٤ ـ ٢٦٥]، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١]، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا

فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلۡعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزۡقًا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ ـ ١١]، ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور: ٣٩]، ﴿أَوۡ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٌ وَبَرۡقٌ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ [البقرة: ١٩ ـ ٢٠]، ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢ ـ ١٣]، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [الروم: ٢٤]، ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١١ ـ ١٤]، ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ [الحديد: ٢٠].

بعد هذه الدلائل كلها على إبداعية الله في الطبيعة، ألا يتحتم أن ينحني الإنسان لقدرته التي مالها من حدود؟ ألّا يتوجب

أن يسجد لهذا الملك العظيم الذي أغدق نعمه على الحياة بهذا القدر من الإحكام والسخاء؟

من أجل ذلك نجد (القيمة) التي تكرر نفسها في نهاية كل آية تتعلق بالموضوع هي ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾... فليس إلا العميان الذين طُمس على أبصارهم وعقولهم من لا يقدّر هذا كله، ولذلك يسوقهم كتاب الله إلى خانة الدواب والأنعام: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

في الحلقة الثامنة من هذا المسلسل المدهش ينقسم الماء النازل من السماء مطراً، ولحكمة الله ورحمته بعباده إلى ثلاثة أقسام كي لا يذهب هدراً إلى البحر... يمضي قسمٌ منه ليشكل الأنهار ويغذيها بالماء: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦]، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ [الرعد: ٣]، ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]، ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ [النمل: ٦١]، ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٢].

ويمضي القسم الآخر إلى باطن الأرض وتجاويفها لكي يخزن هناك، ثم ما يلبث أن يتدفق آباراً ومجاري وعيوناً، لتلبية حاجات

الإنسان، بوسيلة آلية أو بغير ما وسيلة... إنها ما يسميه الجيولوجيون وعلماء الري: المياه الجوفية التي تعين الأنهار على تأدية وظيفتها الأساسية في إدامة الحياة: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، (وانظر سورة الأعراف: ١٦٠]، ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٣ ـ ١٣٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: ٢١]، ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٦]، ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٦]، ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣١] ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣]، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣].

حدّثني رئيس قسم الجيولوجيا (طبقات الأرض) في كلية العلوم بجامعة الموصل، عن آخر كشف لعلماء الجيولوجي: جدار طيني غير مسامي عازل، وهو الجدار الثالث لمخازن المياه الجوفية، والذي يمنع

تسّرب قطرة واحدة من الماء في التجاويف الأرضية، ويحمي هذا الخزين المعجز، لحين الإفادة منه في إدامة الحياة، حيث قد لا تكفي، أو تصل مياه الأنهار إلى كل بقاع الأرض... فتلوتُ عليه هذه الآيات الأربع التي تؤكد هذه الظاهرة المدهشة: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٤١]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

أليس هو الله الذي لا إله إلا هو، الذي جعل للمخازن الجوفية ثلاثة جدران، كان آخرها ذلك الذي لا تنفذ منه قطرة واحدة من ماء؟ فماذا لو لم تتحقق هذه المعجزة، ألا يمكن للمياه أن تذهب هدراً، وتغور في أعماق الأرض بعيدة عن متناول الإنسان، حتى لو امتلك تكنولوجيا العالم كله؟!

ومرةً أخرى يجد الإنسان نفسه يردد: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [لقمان: ١١].

وأما القسم الثالث من مياه الأمطار النازلة من السماء، فيذهب إلى أعالي الجبال والمناطق الباردة، حيث درجات الحرارة المنخفضة تسوقه إلى التجمد في كتل هائلة، تمثل هي الأخرى خزيناً دائماً يتدفق مجاري وشلالات، لكي يغذي الأنهار في موسم الحرّ، حيث ينخفض مستواها من جهة، ويتعرض الثلج المتجمد للذوبان من جهة أخرى.

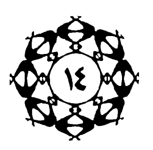
فيا سبحان الله على هذا الإحكام في واحدة فحسب من الظواهر الطبيعية، والذي تنتفي معه الصدفة رياضياً وفيزيائياً بأي شكل من الأشكال، وتتأكد الغائية التي تسوق الظاهرة عبر مراحلها المتعاقبة المبنية بعضها على بعض، بإرادة فوقية مريدة، إلى هدفها.

ويبقى الماء في المنظور القرآني هو أساس الحياة ووحدة تكوينها الأولى: نباتاً وحيواناً وإنساناً: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥]، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

فأين هذا، مرةً أخرى، من تفسير المادية الديالكتيكية الذي يقول بتحوّل المتغيرات الكمية إلى متغيرات نوعية، دونما مداخلة خارجية، فيما دفع سوليفان في (حدود العلم) إلى تسميتها بنظرية السخف الطائش؟

وأين هذا من مقولات العلمانيين الملتوية التي تقول بأن الطبيعة تصنع بذاتها هذا كلّه؟ إن النظريتين اللتين تصلان، كما يقول الكساندر غراي وسوليفان، حد السخف والفجاجة، لتتهافتان بمجرد مقارنتهما بالرؤية القرآنية المحكمة، والمنطقية، والتي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، أليس هي من معطيات الله جلّ في علاه... المالك لهذا الكون، والحاكم بأمره على كل ما يجري أو يتشكل فيه، بدءاً وكينونة، وصيرورة، ومصيراً؟!





مستويات الخطاب الإلهي لرسول الله ﷺ

وهذه معجزة أخرى من معجزات هذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه... إنها خطاب الله سبحانه وتعالى لرسوله المبعوث ﷺ، والذي يتدرج ما بين التقييم والمواساة واللوم والعتاب، ويمضي باتجاه الأوامر الصارمة، وتأكيد العبودية المطلقة لرسول الله، وسحب صلاحيته، وخضوعه لواقعة الموت، والمنّة والفضل عليه، وتجريده من القداسة وادّعاء الغيب، وصولاً إلى تجهيله، وتصحيح أخطائه، وتحذيره، ثم التنديد به ومضاعفة العقوبة!!

إنه بإيجاز شديد: الخطاب الموجه من الأعلى إلى الأدنى، ومن الآمر إلى الجندي، ومن الله إلى العبد... أوامر إلهية لإنسان يعمل عند جهة عليا... تجرّد فريد إزاء جبروت الله وعلمه المطلق...

إن كل فتح أو نعمة أو أمن نفسي أو نصر أو اجتياز لامتحان صعب، إنما يُنسب إلى الله جل في علاه، وليس لرسوله فيه قُلامة ظفر!!

وإنه لواحد من أشد الأدلة الوجدانية إقناعاً، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، على أن هذا النبي الإنسان محمد ﷺ،

إنما هو مبعوث من الله ﷻ... وأنه ستار القدرة، ولا شيء له من الأمر... وإلا لأخطأ مرة واحدة... واحدة فقط... ونسب لنفسه المكاسب التي حققها وحاشاه... بل إنه طالما تلقى تنديداً، وخطاباً يتميز بالقسوة والقوة والتلويح بالعقاب، بل بمضاعفة العقوبة في حالة ممارسة أي انحراف عن الأوامر التي تجيئه من فوق... وحاشاه...

إن هذا وحده كاف للتأكيد الذي لا يقبل مماحكة ولا جدلاً، على نبوّة الرسول وتلقِّيه عن السماء قبالة دعاوى الوضعيين وتألّههم المغشوش...

والحق أنِ هذا الموضوع ينطوي على أهميته البالغة باتجاه آخر، فبالرغم مما كُتب عن أخلاق الرسول ﷺ في دراسات السيرة مستمداً من مصادر السيرة والتاريخ وكتب الشمائل... فإن معالجة أخلاق النبي ﷺ من المنظور القرآني، لم تعطَ ـ بعدُ ـ حقها كاملاً من البحوث والدراسات، رغم أن القرآن الكريم يقدم معطيات غنية وخصبة تساعد على رسم صورة دقيقة وشاملة للموضوع، فضلاً عن أنها تحمل مصداقيتها المطلقة بسبب ارتباطها بالنص القرآني، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه...

والموضوع ـ فضلاً عن هذا كله ـ يفتح المجال لإجراء مقارنة علمية متأنية بين الصورة التي تقدمها كتب السيرة والشمائل والتاريخ عن شخصية رسول الله ﷺ، وتلك التي يقدمها القرآن الكريم، والتي تزيدها كتب التفسير إيضاحاً...

الآيات والمقاطع القرآنية التي تحمل الخطاب الإلهي لرسول الله ﷺ في مستوياتها العديدة، ما بين التقييم والتنديد، واضحة بيّنة في دلالتها، لا تحتاج إلى مداخلة أو تعليق أو إيضاح... فهي بشحناتها الوجدانية المؤثرة تكفي دليلاً قاطعاً على أن هذا الكتاب منزّل من عند الله ﷻ، وتقطع الطريق بالدليل القاطع على القائلين والمشكّكين بأنه من عند رسوله... فلنتابع هذا الخطاب عبر تقسيمه إلى ثلاثة عشر مستوى، دونما أي مداخلة منّا قد تكون لا ضرورة لها على الإطلاق...

۞ ۞ ۞

[١]

التقييم

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ

ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١ ـ ٣٢]، ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣ ـ ١٤]، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١ ـ ٤٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ

ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦٥]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٧٠]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨٠ ـ ٨١]، ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:

٥٤]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٢ ـ ٦٣]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٦ ـ ٥٧]، ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٤]، ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١ ـ ٥٢]، ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١ ـ ٥]، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٣]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٨ ـ ١٠]، ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣]، ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، ﴿إِذْ جَعَلَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٦ ـ ٢٩]، ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨ ـ ٤٩]، ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١ ـ ١٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ

قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٣]، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ١ ـ ٤]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١ ـ ١١]، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ١ ـ ٨]، ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣].

❁ ❁ ❁

[٢]

المواساة

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦]،

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ [النساء: ٨٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٤١) سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤١ ـ ٤٢]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأنعام: ٧]، ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣ ـ ٣٤]، ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ

بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٥ ـ ٩٩]، ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ ـ ٣]، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٠ ـ ١٣٢]، ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٣ ـ ٢٢٠]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٦ ـ ٣٧]، ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣ ـ ٤٤]، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠]، ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٦ ـ ٨٨]، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ

رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٤ ـ ٢٦]، ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٥ ـ ٤٩]، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩ ـ ٣٠]، ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦]، ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٥ ـ ٧]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ [الدخان: ٥٨ ـ ٥٩]، ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٤ ـ ٥٥].

❁ ❁ ❁

[٣]

اللوم والعتاب

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٤ ـ ٩٥]، ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢ ـ ١١٣]، ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨ ـ ٥٠]، ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [التحريم: ١ ـ ٢]، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ [عبس: ١ ـ ١١]، ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ

سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

❁ ❁ ❁

[٤]

الأوامر الصارمة

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝١٤٩ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٠]، ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ

إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩]، ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٢ ـ ١١٥]، ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]،

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسـراء: ٧٨ ـ ٨٠]، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٧ ـ ٢٨]، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طـه: ١٣٠ ـ ١٣٢]، ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النـمـل: ٩١ ـ ٩٢]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣]، ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الـزمـر: ١١ ـ ١٤]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحـزاب: ١ ـ ٢]، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ

ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧ ـ ٨]، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ٨ ـ ١٦]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن

رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]، ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٩]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣ ـ ٢٦]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٧]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥ ـ ١٢٨].

❊ ❊ ❊

[٥]

العبودية المطلقة

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٤ ـ ١٧]، ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٥ ـ ١٦]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ

مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٨ ـ ٩]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَاۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: ٢٨ ـ ٢٩]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٠ ـ ٢٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ١١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ

عَلَيْكَ ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧]، ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠]، ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٣ ـ ٧٤]، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

❁ ❁ ❁

[٦]
سحب الصلاحية

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]، ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى

وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦ ـ ٥٨]، ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٦ ـ ١١٧]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨]، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]، ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

[التوبة: ٨٠]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٤]، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]، ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠ ـ ٨١]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦]، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الروم: ٥٢ ـ ٥٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾

[فاطر: ٢٢]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٦]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٨ ـ ٩]، ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

❁ ❁ ❁

[٧]
الخضوع لواقعة الموت

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤ ـ ١٤٥]، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١]، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤ ـ ٣٥].

❁ ❁ ❁

[٨]
المِنّة والفضل

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٦ ـ ٨٧].

❁ ❁ ❁

[٩]
التجريد من القداسة وادّعاء الغيب

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢]، ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ

يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٥ ـ ٢٦]، ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٥ ـ ٢٨]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٦]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٨ ـ ٥٩]، ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

❁ ❁ ❁

[١٠]

التجهيل

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ

ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤ ـ ٤٦]، ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٦٩ ـ ٧٠]، ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الأنبياء: ١٠٩ ـ ١١١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ

وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرٗا﴾ [الطلاق: ١]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

❁ ❁ ❁

[١١]
تصحيح الأخطاء

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤ ـ ٥]، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٞ مِّنْهَا وَطَرٗا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولٗا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمْ

وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٧ ـ ٤٠]، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

❁ ❁ ❁

[١٢]

التحذير

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ

لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣]، ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧]، ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٦ ـ ٨٨].

❁ ❁ ❁

[١٣]

التنديد ومضاعفة العقوبة

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨]، ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥]، ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١٣]، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥ ـ ٦٦]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧]، ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾

[الأحـــزاب: ٣٠]، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

❁ ❁ ❁

فأية مصداقية هذه التي يخاطب فيها الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ وفق هذه المستويات التي تتدرج ما بين التقييم والتنديد... فلو كان هذا الكتاب من عند غير الله، كما يدّعي الملاحدة والمشككون، أكان يمكن أن يخاطب الرسول نفسه بهذا الأسلوب الذي يكاد يجرّده من كل شيء ويضعه على حافة المساءلة والعقاب؟

إنها، مرة أخرى، العقول التي طُمس عليها، والقلوب التي علاها الصدأ، والأرواح التي غرقت في العتمة، والعيون التي فقدت القدرة على التمييز بين الألوان فأصابها العمى، والنفوس التي التوت بالحقد الأسود على كل ما هو وضيء مشع في هذه الدنيا... والأهواء التي تنحرف بالمدلجين في الظلمات عن الصراط، وتقودهم عبر الطرق الملتوية وهم يتعاملون مع الحقائق الربانية الواضحة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها... والأنانية التي تأسر هؤلاء في دائرة الادعاء والغرور والانتفاخ الكاذب ومطّ الحقائق الجزئية، واعتبار فلسفاتهم وعقائدهم ومناهجهم المفتاح الوحيد للكون والعالم والحياة، من أجل أن يسوقوا وراءهم عدداً أكبر من العبيد والمستذلين والأتباع...

ها هنا نجد أنفسنا بإزاء أحد الفروق الحاسمة بين ما يقوله

ويفعله أرباب المصالح والأهواء والظنون، وما يتلقّاه ويقوله ويفعله الأنبياء الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام... وهو فارق يكفي وحده لكي نعرف الخسارة الكبرى لقطعان الضالّين، الأذلاء، المستلَبين، السائرين وراء الأرباب المزيفين، والمتألّهين في الأرض... ولكي نعرف ـ في المقابل ـ الكسب العظيم المشرّف لكل المنتمين لشريعة الله ﷻ، الملتزمين تعاليم أنبيائه الصديقين ﵈.

هناك الكذب والانحراف والتخبّط والتضارب والالتواء والضلال والخسران المبين، وهنا الصدق والاستقامة والوضوح والانسجام والهدى والكرامة، والصراط الذي يقود إلى الهدف عبر أقصر المسافات وأكثرها وضوحاً واستواءً واعتدالاً...

ونعرف عند ذاك ما الذي تريد أن تقوله كلمات الله وهي تتحدث عن هؤلاء الأرباب المتقلّبين، من الملاحدة والمشكّكين، وتحذر من الانزلاق إلى مصائدهم في الوقت نفسه فهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣] بينما يتبع المؤمنون الهدى الآتي من عند الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]... وهم ـ أي الأرباب ـ يقيمون مناهجهم على الأسماء والقيم والرموز الموهومة المجردة من الفاعلية، والتي لا تملك أيما قدرة أو سلطان: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]، بينما يقيم الأنبياء ﵈ مناهجهم على القيم والضوابط والمعايير والتعاليم القادمة من عند الله الواحد،

المسيطر، المريد، العالم، الخبير، القوي، القادر على الفعل والخلق بقوة الكلمة...

إنه الفارق الكبير بين أخلاقية المتسلطين من قادة الفكر والسياسة وأرباب المذاهب والفلسفات، والدعوات الوضعية، وبين أخلاقية الأنبياء... رسل الله إلى البشرية... (عليهم أفضل الصلاة والسلام).

ومرَّةً أخرى... وثالثة وعاشرة... فإن هذا الفارق وحده يكفي للتحذير... يكفي لكي يقول للناس: انتبهوا... احذروا الخدعة... يكفي لكي يرسم طريقين كل منهما يمضي إلى هدف... أحدهما ينتهي عند الشيطان، والآخر يؤول إلى الله ﷻ...

وطريق الشيطان يقدّم ـ في بدء التحليل ونهايته ـ صورة بشعة حقاً للعلاقات البشرية، وهي تتميع بشكل مفجع، وتفتقد أية قيمة حقيقية ثابتة تستند إليها، وتمنحها الديمومة والاستمرار... والأنكى من هذا أن تفككاً رهيباً كهذا يصيب وجه الحياة البشرية بالدمامل والبثور، ويقتل وجهها المضيء الجميل، إنما يجد تبريره العقلي في فلسفة ما من الفلسفات البشرية المعوجّة القائمة على الميل والظن والهوى، وما دام أن المفكر الوضعي لا يمكن ـ بحال ـ أن يتحرر من الميول والظنون والأهواء، فإنه سيظل يلد فلسفات قاتمة كهذه، سيئة إلى الحدّ الذي يقف بصراحة، بل بوقاحة، أمام تفرّد الحياة البشرية ونقائها، وسعيها الجاد صوب

الأحسن والأرقى، ويرغمها على أن تمارس العلاقات بصيغتها اللاإنسانية، كما يحدث في المجتمعات الحشرية سواء بسواء...

وهكذا فإن الفلسفة البراغماتية (الذرائعية) التي انبجست في أمريكا ـ على سبيل المثال ـ ليست شيئاً جديداً على خارطة الفكر الوضعي، كما أن (الوضعية) و(الفرويدية) و(الداروينية) و(الماركسية)، والخلفيات الفكرية المعوجّة لنظريات الحداثة النقدية، التي تسعى إلى قتل الإله والإنسان معاً، ليست شيئاً جديداً...

وهكذا فاذا خان الزوج زوجه وخدع صديق صديقه فإن الجواب عند (أبيقور)، وإذا غدر شعب بشعب، وذبحت طبقة طبقة أخرى كان الجواب عند (هيغل) و(ماركس)، وإذا تجاوز إنسان ما حدود المحرمات ففسق بها وجد (فرويد) محامياً قديراً على تبرئة ساحته... وإذا تحركت المجتمعات بروح القطيع الأعمى وراء قادتها وطواغيتها وجزّاريها، وجدت التبرير في فلسفة (دركايم)... وإذا ما أسقطت أمريكا قنبلتين ذريتين ذبحت بهما مدينتين يابانيتين وتركت ذراريهما تتلوى من الألم... وغزت أفغانستان والعراق مخلفةً فيهما ركاماً من اليورانيوم المخضب الذي قتل ولا يزال ملايين الناس، وجد تفسير ذلك في نظرية (هوبز) التي أخذ بها زعماء أمريكا... وإذا ما سعى الحداثيون ـ وسط عنفوان جنونهم العقلي ـ إلى قتل الإله والإنسان معاً... عثروا على المفتاح عند نيتشه، الذي انتهى به الأمر في مستشفى الأمراض العقلية...

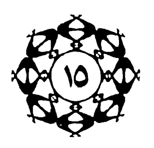
وعند (فوكو) الذي اتهم في بولندة بالشذوذ الجنسي ثم ما لبث أن توفي بمرض الإيدز!!

عشرات... مئات من الآلهة والأرباب المزيفة... ومن الأصنام المبعثرة على قارعة كل طريق، كانت ـ وستظل ـ تحكم عقل الإنسان، وتتحكم في وجدانه وروحه في كل زمن ومكان...

ولن يتحرر الإنسان ـ بحق ـ إلا بالدين القادم من عند الله سبحانه وتعالى، العادل الذي لا يظلم مثقال ذرّة، المهيمن الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء... الخبير الذي يعلم من خلق وهو بكل خلق عليم...

وليس ثمة بعد الدين الحق، إلا ما قاله القرآن الكريم بكلماته المعجزة فاختصر به مأساة الحياة البشرية ومنحها ـ في الوقت نفسه ـ الطريق الذي يخرج بها إلى برّ الأمان، الوضيء، النظيف، السعيد: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].





الطاغوت وتوقيت العقاب الإلهي

ما أكثر عجلة الإنسان ونفاد صبره...

وما أكثر ما يعمى ويُغمض عينيه عن رؤية الحقائق القاطعة والواضحة للعيان...

وما أكثر ما ينسى سنن الله العاملة في التاريخ، وقوانينه الصارمة الماضية في الكون...

وما أكثر ما يريد القطاف سريعاً عاجلاً دونما أي حساب لشبكة العوامل التي تقتضي تأجيله...

تلك هي طبيعة الإنسان... وتلك هي خصيصة مركوزة في جبلّته... وطالما حدّثنا عنها كتاب الله، ولفت أنظارنا إليها من أجل أن نتدبر الأمور، ولا نستعجل النتائج فنقع في الخطأ... والخطأ كما يقول السياسي العجوز تاليران (أكبر من الجريمة)!! ذلك أن هناك من يسوقهم استعجال الهلاك للظالمين، إلى الشك في موقفهم الديني من أساسه!! وكأن لسان حالهم يقول: إذا كان الله ﷻ موجوداً وهو يملك القدرة بكلمة **(كن)** فلماذا هذا التأخير في إنزال العقاب؟!

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٨]، ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١]، ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤]، ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١]، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الصافات: ١٧٥ ـ ١٧٦]، ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ﴾ [الحج: ٤٧]، ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْۖ﴾ [يونس: ١١]، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

❁ ❁ ❁

والحق أن هناك في منظومة القرآن السننية شبكة من الشروط التي يمسك بعضها برقاب بعض، وينبني بعضها على بعض في مسألة تحديد الأجل أو إنزال العقاب... وإلا أصبح العقاب ـ وحاشا لله ـ مجانياً مدمراً للحياة واستمراريتها

وصيرورتها: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

فهو ـ إذن ـ الإمهال وليس الإهمال، المرسوم في علم الله وفي موعده المحدد الذي إذا جاء فلن يؤخره شيء في هذا العالم... إنه ـ أولاً ـ إهلاك محتوم: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ [مريم: ٩٨]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]، ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وهو ـ ثانياً ـ محدَّد بآجاله الثابتة التي لا تتقدم أو تتأخر لحظة واحدة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤ ـ ٥]، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩]، ﴿وَرَبُّكَ

ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٨ ـ ٥٩]، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

وهو ـ ثالثاً ـ إذا جاء فلن يقف أمامه شيء، لا القوة ولا العدد ولا التقدّم العمراني: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [التوبة: ٦٩]، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

إننا هنا نتحدث عن (قوة الله) التي لا يعجزها شيء في السماوات والأرض، قبالة قوة الطواغيت التي لا تعني شيئاً على الإطلاق في موازين القوى الكونية... والتي (تفركها) الإرادة الإلهية كما (تفرك) البعوضة فتخرجها من الوجود.

وبهذا كله يستقر عقل المؤمن، وقلبه، إلى المصير الذي سينتهي إليه هؤلاء مهما طال بهم السرى، فإنهم جميعاً في القبضة الإلهية التي لن يُفلت أحد منها: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨]!!

ثم إن العدل الإلهي يقتضي، لحكمة يريدها الله ﷻ، أن يمنح الفرص للجميع مؤمنِهم وكافرِهم، تقيِّهم وفاجرِهم... على السواء، ما دام قد كتب لهم الحياة، فليأخذ كل منهم حظه الكامل منها شقياً أم صدّيقاً: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١]، ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦]، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠]، ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ

﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

❁ ❁ ❁

ولقد شاءت حكمته ﷻ أن يجعل الإمداد للطغيان يحقق هدفين اثنين ما كانا ليتحققا لولا الفرصة المفتوحة لعشاق الضلال... فأما الهدف الأوّل، فيتمثل في إعطاء مساحة مناسبة للضالين والطواغيت لعلهم يثوبون لرشدهم ويرجعون للحق، ولعلهم ـ بعد ذلك ـ يندفعون في الاتجاه المضاد بأقصى ما يستطيعون للتعويض عن زمن الضلال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

ولقد لمسنا هذا في مواقف رسول الله ﷺ من رجال الملأ من الوثنيين من قريش ومن أهل الطائف، حيث عرض عليه جبريل عليه السلام وقد رأى ما يفعله المكّيون برسول الله وأصحابه من كيد وبطش وأذى وتعذيب، أن يطبق عليهم الأخشبين في لحظات من عمر الزمن، لكن رسول الله ﷺ أبى ودعا الله أن يغفر لقومه لعلهم يرجعون.

والأمر نفسه لدى حصاره الطائف، حيث رفض أن يصرّ على مواصلة القتال وتركهم لكي يجيئوا بأنفسهم ويعلنوا إسلامهم...

والنتيجة في الحالتين أن أهل مكة والطائف هم الذين تأبَّوْا على حركة الردة والتنبؤ التي غطت على جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها، وهم الذين تولَّوْا كبر مقاومتها، وهم الذين

برز منهم القادة الفاتحون الكبار الذين أسقطوا إمبراطوريتي كسرى وهرقل وغيّروا خرائط العالم.

وما أكثر أولئك الذين يمضون في الضلال... وفي البطش والأذى... ولكن إذا مُنحوا الفرصة للعودة إلى الصراط، فإنهم قد يعودون... وقد تكون في عودتهم نتائج في غاية الخطورة لمصير المبادئ والدعوات.

وأما الهدف الثاني الذي يتحرك في الاتجاه المعاكس، فهو أن الإمداد للطغيان يجيء بمثابة مصيدة... استدراج... للضالين والطواغيت لكي يزدادوا معصيةً وإثماً وضلالاً... فيؤخذوا بذنوبهم... بالحق والعدل اللذين قامت بهما وعليهما نواميس السماوات والأرض... وما أكثر ما ترد في كتاب الله مفردات الاستدراج هذه من مثل: (فتنّا، زيّنا، متّعنا... الخ)... مؤكدة هذا البعد المقصود من الإمداد للطغيان: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣]، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٧]، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد: ١٤]، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[يونس: ٨٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣]، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ [الممتحنة: ٥]، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢]، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤]، ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢]، ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الرعد: ٣٣]، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧]، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ

وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٠]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ [القصص: ٦٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٤ ـ ٥].

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨]، ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٦١]، ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥]، ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٤]، ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠]، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]، ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٣٥]،

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد: ١٤]، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦]، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦]، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠]، ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ﴾ [هود: ٨]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ﴾ [النحل: ٦١]، ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٥٦]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ

مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤ ـ ٤٥]، ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥].

❁ ❁ ❁

هذا إلى أن أخذ الطغيان بالسرعة التي يريدها ويتمناها (المستعجلون) سوف يُسلم المؤمنين للكسل والاتكال... وسيغيب عامل الجهد والمقاومة والتمحيص، وتمييز الذهب الأصيل من التراب الرخيص... ولسوف (يعلّق) العاملون سعيهم في الأرض بانتظار نزول المساعدة العاجلة من السماء... وقد يمضي الأمر إلى ما هو أبعد من هذا: شلل يصيب الفاعلية الحضارية للأمة التي لا تجد نفسها إزاء التحديات، التي تستفزها للاستجابة، وتقودها بالتالي إلى بذل الجهد عبر حلقات الفعل الحضاري كافة من أجل التفوّق عليها...

إن تصفية الطواغيت (على السريع) سيلغي كل قوى الشدّ والإعاقة في مسيرة الأمم والجماعات، وسيفقدها حافز التوتر الذي يصنع الحضارات... أما على المستوى الفردي، فلن يبقى في حالة كهذه أي معنى للحساب والجزاء، ما دام المؤمن مستريحاً لما سيأتي به حكم السماء السريع... فلا يبذل جهداً... ولا يبدي مقاومة... ولا يجتاز تضحية... ولا يجد قبالته من العوائق والمتاريس ما يتطلب جهداً وتضحية من أجل التفوق عليها

واجتيازها... فما معنى الحساب والجزاء إذن وقد غدت الدنيا ساحة للتواكل والقعود وانتظار المعجزات؟!

إن النسيج القرآني المحكم كله... بما في ذلك منظومة الآيات التي سبق إيرادها، تؤكد هذا، وتدير المنظور من أكثر من زاوية لكي تقول للناس إن عليكم أنتم أن تبذلوا الجهد في حدوده القصوى، إذا أردتم أن يكون لكم مكان في هذا العالم... وإلا فإن إلقاء السلاح، والاستسلام لمعونة السماء، ستلغي كل مبرّر لفرصتكم في هذه الحياة الدنيا... ولسوف يتساوى عندها الصالحون والطالحون... العاملون والقاعدون، قبالة حالة يغيب فيها التحدي والاستفزاز: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

* * *

ثم إننا نلاحظ، عبر متابعتنا للشواهد القرآنية آنفة الذكر، وغيرها كثير، أن الإمهال والعقاب المترتب عليه قد يكون فردياً وقد يكون جماعياً، وأنه قد ينزل في الدنيا وقد يؤجّل إلى يوم الحساب... ذلك هو منطوق العدل الإلهي في التعامل مع الظواهر والخبرات والأشياء... إنه يلاحظ الحالتين معاً، ولا يكتفي بالوقوف عند إحداهما. وها هنا نجد كيف أن إمهال الطواغيت عن تلقي ما يستحقونه من عقاب يجيء بمثابة فرصة لاختبار الأفراد والجماعات معاً في قدرتهم على حشد طاقاتهم لمقاومة الطاغوت وردّ الأمور إلى نصابها الحق، وأن ما يترتب على تقاعد الأفراد والجماعات معاً عن المقاومة والفاعلية والجهاد سيصيب بأذاه الطرفين معاً...

وإن العقاب قد ينزل في الدنيا وقد يؤخر إلى يوم الحساب... والأمر سواء في ميزان العدل الكوني الذي خلقت به وله السماوات والأرض: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس: ٥٤]، ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ

سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١]، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩]، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢]، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤]، ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ﴾ [ابراهيم: ٢٧]، ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ﴾ [الزمر: ٢٦]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ﴾ [فصلت: ١٦].

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٤٩ ـ ٥١]،

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١]، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٤ ـ ٥]، ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧]، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

❁ ❁ ❁

وأخيراً، لنا أن نتساءل عن عمر الدنيا قياساً على عمر الكون... عن السنوات المحدودة المنصرمة المعطاة للإنسان في هذا العالم، والتي تعدّ بالأيام والأسابيع والأشهر الاثني عشر لكل واحدة من تلك السنوات: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦] مقارنة بالزمن الكوني الذي يعدّ اليوم الواحد فيه كألف سنة مما نعدّ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ

كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، بل إن اليوم الكوني الواحد ليساوي خمسين ألف سنة من أيامنا الأرضية، أو ما يعادل (١٨,٢٥٠,٠٠٠) يوماً أرضياً: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، ومن أجل ذلك يخاطب الله جلّ في علاه رسوله الأمين أن يصبر الصبر الجميل على ما يلقاه من عنت وعذاب بانتظار اليوم الذي سيصفّى فيه الحساب مع الفجرة والطواغيت، والذي يراه الإنسان لعجلته ونفاد صبره، بعيداً، بينما هو في المنظور الإلهي على بعد خطوات: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٥ ـ ٧].

فما الذي يعنيه الإمداد للطغيان سنة أو سنتين، عقدٌ أو عقدين، سوى أنه إضافة لحظات من الزمن لهذا الطاغية أو ذاك، ما دام أنه مأخوذ في نهاية الأمر بما صنعته يداه... بل ماذا لو مدّ في أجله إلى آخر لحظة من حياته ذات السبعين أو الثمانين سنة، وهي التي بمجموعها في المنظور القرآني، وبالتعبير القرآني: ساعة من نهار، أو يوماً واحداً، أو عشرة أيام، أو حفل تعارف ينفضّ بعد ساعة أو ساعتين وقد نُسيت فيه الأسماء وملامح الوجوه!! ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طـه: ١٠٢ ـ ١٠٤].

ما الذي يعنيه إضافة حشد من السنين التافهة إلى عمر هذا

الطاغوت أو ذاك، ما دامت أنها في الحساب الكوني الدقيق لا تعدو أن تكون لحظات تافهة من عمر الزمن؟! لكننا ـ مرة أخرى ـ خُلقنا على عجل، ومن ثم فإننا نستعجل الأمور، وتضيق صدورنا، عندما يمدّ في عمر الطاغوت، بل إن بعضنا قد يقوده اليأس والإحباط إلى التجديف والفجور... وكلنا عايشنا نماذج نزقة كهؤلاء... لكنهم عندما يرون في نهاية الأمر مصير الطواغيت وقد ساقتهم المصيدة الإلهية إلى نهاياتهم البشعة، يؤوبون إلى الحق، ولكن بعد أن يكونوا قد خسروا أنفسهم...

وطالما حدثنا القرآن عن أن الحياة الدنيا ـ وأشدّد على كلمة (الدنيا) هذه التي تعني السفلى ـ إنما هي لهو ولعب، ومتاع، وغرور... ورحلة سريعة عابرة، يشبهها الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) بوقفة للحظات تحت ظل شجرة، ثم ما يلبث أصحابها أن يرحلوا إلى مصائرهم... إننا، والحق يقال، نحيا حياتنا الدنيا هذه بالطول والعرض، كأننا نمثل أدوارنا على شاشة الزمن الملساء دونما أي عمق حقيقي لهذه الحياة، فالعمق الحقيق هو هناك: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

لو كانوا يعلمون... فما هم إلا ممثلون يؤدون أدواراً محددة رسمت لهم على شاشة الزمن، لكي ما يلبثوا أن يغادروها إلى غير رجعة، تاركين الشاشة للممثلين الجدد لكي يؤدوا أدوارهم هم الآخرون...

وتبقى الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ومتاع وتفاخر بالأموال

والأولاد... وهي كلها إذا أردنا الحقَّ باطلُ الأباطيل وقبضُ الريح... الدنيا كلها بما فيها من متع وملذات وفرص، إن هي إلا متاع عابر، فان، والحياة الحقيقية الباقية، الدائمة، هي هناك: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]، ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ ـ ٨]، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وَزِينَتُهَاۚ﴾ [القصص: ٦٠]، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

أفلا تعقلون؟ وذلك هو السؤال الاستنكاري الذي تصفع به كلمات الله وجوه الطواغيت والأرباب، وقطعان الجماهير الضالة التي لا تملك عقلاً تميز به بين الحق والباطل... بين حقائق الظواهر والموجودات وبين ديكورها الخارجي الخادع، والذي يستهوي الذين لا يملكون أفئدة ولا عقولاً.

ورغم ذلك كلّه، فقد يدور في أذهان المشككين سؤال طالما رددوه مع الآخرين، ولاكوه مع أنفسهم، هل معنى هذا كله قسر الناس على الانتماء إلى مظلة الإيمان لتخليص أنفسهم من العقاب؟

والجواب... أبداً... فها هو ذا كتاب الله يترك حرية الاختيار بين الكفر والإيمان على مداها... هذه (الثيمة) التي تتردد في القرآن الكريم من بدئه حتى منتهاه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ [الكهف: ٩٩]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ

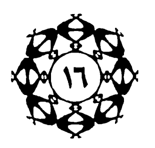
أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]، ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦]، ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩].

❁ ❁ ❁

تلك هي ـ بإيجاز شديد ـ قضية الإمداد للطواغيت والفجرة والكفار، كما يحدثنا عنها كتاب الله بالرؤية النافذة التي تدير المنظور على جوانبه كافة، فتقدم الجواب المقنع، والقاطع، الذي لا يحتمل لجاجة ولا جدلاً... وذلك هو المنطق القرآني الذي يحيط بالظواهر والأشياء علماً فيقدم بخصوص أيٍّ منها جوابه الشافي...

وها هنا بصدد التعامل مع الطواغيت... فإن آيات الله أقنعتنا بأن نكفَّ عن استعجال الأمور، والقطاف السريع... ذلك أن إضافة دقيقة أو دقيقتين من الزمن الكوني لهذا الطاغوت أو ذاك، تقوم على مبرّراتها ـ كما رأينا ـ وهي في نهاية الأمر قد لا تعني شيئاً في موازين الحق والعدل اللتين قامت بهما وعليهما نواميس السماوات والأرض!!





حول النبوءات المستقبلية

الذي يطالع نبوءات الساحر والمنجم الفرنسي المعروف (نوسترا داموس)، والتي يتحدث فيها عما سيشهده العالم من وقائع وأحداث... وعما سيقع مستقبلاً... يأخذه العجب العجاب من تلك المقاربة المدهشة لما سيجري...

صحيح أن كل واحدة من تلك المقاربات التي كتبت قبل قرون، إنما كتبت بلغة تنطوي على الكثير من المعميات، والبعد أحياناً عن نسيج الواقعة... إلا أنها في خطوطها العريضة ودلالاتها المؤكدة، تجيء مطابقة إلى حدّ كبير لما سيشهده العالم من وقائع وكوارث وسياسات وعلاقات دولية... بما سيمر عليه من زعماء وطواغيت ومتجبرين قادوه إلى الويل والدمار... وألحقوا بشعوبهم، وربما بالعالم كله الأذى والخراب...

عجيب أمر هذا الكتاب الذي ألّفه نوسترا داموس، وقام بترجمته الأخ الأستاذ محمد جميل حمادة، وهو يحكي ـ على سبيل المثال ـ عما سيفعله زعيم كهتلر أو موسوليني أو ستالين... وعما سيشهده عالمنا العربي والإسلامي من زعامات وحكام أمثال

القذافي وعبد الناصر وصدام حسين، وعن النهايات الدرامية التي انتهوا إليها...

حتى ليقال أن أجهزة الاستخبارات في الدول الكبرى كالولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفياتي قبل انحلاله... وغيرهما، وضعوا في حساباتهم ودوائرهم السرّية معطيات هذا الكتاب لكي يحسبوا حساباتهم الدقيقة لما سيشهده العالم من وقائع وردود أفعال وأحداث.

ومعروف أن العديد من زعماء العالم كانوا يضعون في دوائر مخابراتهم شياطين السحرة الكبار والمنجمين المعروفين من أجل أن يرسموا سياساتهم المستقبلية في ضوء معطيات هؤلاء...

ومعلوم لدينا نحن المسلمين أن أحداث العالم قد صمّمت مسبقاً بعلم الله وإرادته منذ لحظة خلق السماوات والأرض وحتى يقوم الحساب: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]، ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ

أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ [الإسـراء: ٤ ـ ٧]، ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢ ـ ٣]، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [فاطر: ١١]، ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ [ق: ٤]، ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ [النبأ: ٢٩]، ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

ثم تأتي الآية التي تحسم الأمر كله بكلماتها المعجزة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقد ناقشنا في غير هذا المكان مسألة عدم التعارض في الضمير المسلم بين قدر الله ﷻ في الخلق، وبين حرية الإنسان... بين علم الله المطلق، وبين مشيئة الإنسان الحرّة في الاختيار داخل دائرة هذا العلم الشامل، فلا مبرر لإعادة القول فيها.

ويبدو في ضوء ما سبق أن السحرة والمنجمين يعتمدون محاولات الجن والشياطين لاستراق المعلومات هذه من الملأ

الأعلى... ولهذا وضعت الحواجز في طريقهم (رصداً)... ومع ذلك فإنهم قد يحصلون ـ أحياناً ـ ولحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى، على بعض المعلومات، فيسخرهم السحرة والمنجمون لإيصالها إلى الناس وإيهامهم بقدرتهم على اختراق الغيب والاطلاع على ما سيشهده العالم من وقائع وأحداث... ولهذا تأتي معلوماتهم هذه ـ كما هو الحال في كتاب نوسترا داموس ـ وهي تنطوي على خليط من الوقائع المؤكدة والغبش والمعميات والضباب... وهم في نهاية الأمر يوظفون معلوماتهم هذه لتعبيد الناس المغفلين حيناً، ولجرّهم إلى الكفر والفسوق حيناً آخر، ولتحقيق الكسب حيناً آخر، ولتبوّؤ المراكز المتقدمة لدى أصحاب السلطان حيناً رابعاً، والاستمتاع الشامل المنحرف حيناً خامساً... بهذا الذي يضللون به الناس، ولجلب إعجابهم والالتفاف حولهم، وللوقوف بوجه دعوات الأنبياء عليهم السلام وإعلان الحرب عليها... امتداداً لموقف إبليس الذي أعلن الحرب ابتداءً: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١٢١]، ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن

طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٧٥ ـ ٨٥].

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢ ـ ١١٣]، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨ ـ ١٢٩].

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا

دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨ ـ ٣٩].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤٢]، ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

وهذه الآيات تجيب بوضوح على سؤال قد يعتمل في أذهان الملاحدة والمشككين: لماذا هذا كلّه ما دام بمقدور الله أن يقطع الطريق على أية محاولة للاستراق منذ اللحظة الأولى؟!

إنها حتمية أن يكون هناك في الحياة الدنيا صراع بين الخير والشر... بين الإنسان وبين الجان والشياطين... بين إرادة الله تعالى وبين رغبات الجان والشياطين... بين علم الله المطلق وبين سعي هؤلاء لاقتباس ولو شيء بسيط منه لتحقيق أغراضهم التي مرّت بنا قبل قليل.

إن المسألة تنسحب أيضاً على موقف الإنسان في العالم،

والذي وضعت في طريقه شبكة من العراقيل... وحزم من الأسلاك الشائكة... ومجموعة هائلة من الإغراءات والاغواءات، من أجل أن يتمرس على المقاومة وأن يشحذ في نفسه سلاح الردّ، وأن يخرج منتصراً بعزمه وارادته وقدرته على المجابهة... وإلا فإنه الكسل والقعود والاستسلام، الذي لا تستقيم معه حياة فاعلة ولا تقوم حضارة مبدعة على الإطلاق. ولنستدع مرة أخرى الآيتين اللتين مرّ ذكرهما ففيهما حسمٌ لتساؤل المشككين: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢ ـ ١١٣].

ومن أجل ذلك وضع في الملأ الأعلى ما يمكن اعتباره سياج حماية ضد استراق السمع، كي لا يمضي الجان والشياطين، ومن ورائهم حشود الناس الوصوليين أو المغفلين إلى أهدافهم الملتوية... ومن ثم فإننا نطالع في كتاب الله مقاطع وآيات تحدثنا عن هذا الذي تشهده السماء: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٦ ـ ٩]، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠].

وكما هو معلوم فإن السحر، وخداع البصر، والتنجيم، والكهانة، وادّعاء العلم بالغيب، وما يسمى بتحضير الأرواح، وتبادل المعلومات بين الإنسان والجان... الخ... إنما هي طبقات يعلو بعضها بعضاً... تبدأ بالقضايا البسيطة التي قد تخطئ وقد تصيب، وتنتهي بالكشف المدهش عن الحقائق القاطعة كالسكين.

وقد أتيح لي شخصياً أن أشهد العديد من هذه الممارسات، فرأيت العجب العجاب... وهي جميعاً، على ضلالتها وانحرافها عن المنهج القويم، بل واتكائها على المعلومات الكونية والتاريخية المسترقة من الملأ الأعلى... يمكن أن تقدّم لنا نحن المؤمنين تأكيداً مقترناً بوقائع حسية مختبرية ـ إذا صحّ التّعبير ـ عن وجود عالمَي الجن والشياطين بين ظهرانينا، بحيث لا تترك أي مجال للشك في هذا الوجود الذي يملك ثقله، وقدرته على الحركة، واختراقه للخبرات البشرية، بسبب من تكوينه الناري، فيما يصفع كل مقولات المشككين بعوالم الجان والشياطين.

عبر جلسة لتحضير الأرواح بالفنجان، وهي واحدة من أبسط عمليات التحضير الروحي كما يقولون، حيث ترسم دائرة واسعة على قطعة من الكارتون، تقسم إلى أحرف، ويوضع الفنجان في بدايتها ثم يوضع أصبع الوسيط على ظهر الفنجان، وتوجه الأسئلة من الحضور إلى ما يعتبرونه أرواحاً، بينما هو في الحقيقة من كفرة الجان وشياطين الإنس، فإذا بالفنجان يتحرك دون أي جهد

مبذول من الوسيط على هذا الحرف أو ذاك لكيما تلبث مجموع الحروف المقروءة أن تعطينا الجواب على كل سؤال...

كنت أتابع العملية بكثير من الملل والشك، فإذا بالأجوبة تنصبّ كلها على الوسيط عبر مجموعة من أقذر الشتائم والسباب... وإذا بالوسيط يصفرّ وجهه وينهض قائماً وهو يصرخ: أقسمت بالله عليك أيتها الأرواح الشريرة أن تكفّي عن هذا العبث!!

وقلت في نفسي: لا يمكن لإنسان مهما كان تافهاً أن يوجه لذاته مثل هذا السيل من السباب وإذن فلابد أن تكون هناك قوى خفية، ماكرة، تريد أن تعبث بهذا الإنسان...

وفي جلسة أخرى، أكثر تعقيداً، طلبت من الوسيط أن يسأل (أرواحه) التي يحضّرها عن خطط بغداد في العصر العباسي الأوّل... وكنت يومها طالب ماجستير في معهد الدراسات العليا ببغداد، وقد كُلِّفت من قبل أحد أساتذتي بكتابة بحث عن (خطط بغداد)، فإذا بالوسيط يجيبني، نقلاً عما يقال أن روح الجاحظ بجملة من الأجوبة أذهلتني بدقة معلوماتها وانطباقها على ما توصلتُ إليه من نتائج عبر تجوالي في خبرة هذا الأديب المعروف.

وثمّة جلسة أخرى نقل فيها الوسيط عن (أرواحه) التي استحضرها، العديد من وجهات نظر الشهيد (سيد قطب) في

مفهوم المفاصلة، فإذا بها تأتي مطابقة تماماً لما قرأته في معطيات هذا المفكر الإسلامي الكبير.

والوسيط رجل لم يتجاوز في دراسته المرحلة المتوسطة... فكيف أتيح له أن ينقل ما قاله الجاحظ وما ردده (سيد قطب) وهو لم يقرأ في حياته سطراً واحداً مما كتبه هؤلاء!!

وغير هذه الوقائع الكثير الكثير مما شاهدته بعيني أو سمعته بأذني...

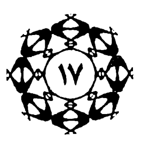
إنها إذن لعبة الأخذ عمن يملك الكثير مما لا نملكه نحن البشر... بسبب من قدرتهم على الحركة والاطلاع واختراق الحواجز واستراق المعلومات... لكونهم ـ مرةً أخرى ـ أجساماً نارية قديرة على الحركة السريعة والإتيان بما يعجز البشر عن الإتيان به... إنهم الجانّ والشياطين... أما ما يدّعيه المحضّرون والوسطاء من أنها أرواح الموتى فإنها ـ والحق يقال ـ أكذوبة يتحتم ألا تنطلي على أحد... ذلك أن أرواح الموتى أعز وأكرم من أن يعبث بها المحضّرون والوسطاء...

والآن، وتأكيداً (لمختبرية) هذه الكشوف التي يمثل الجانّ والشياطين دور البطولة فيها... فإن ديار الغرب تشهد حركة واسعة يسمونها (الروحية الحديثة)، حيث تقام المؤسسات وغرف التحضير وصالات التجارب المتواصلة على أيدي علماء كبار ـ بعضهم ممّن حصل في مجال تخصصه على جائزة نوبل ـ لكي تواصل كشوفها المدهشة في هذا الميدان... ولكي تؤكد بما لا يقبل

مجالاً للشك أننا نحن البشر لسنا وحدنا في هذا العالم، بل إن عوالم أخرى تعيش بين ظهرانينا من الجان والشياطين، ولكن أجهزتنا الحسية المباشرة لم تُهيأ للتعامل المباشر معها... ولذا يلجأ هؤلاء إلى الطرق الملتوية للتواصل والتخاطب والحصول على المعلومات... بحيث إن دوائر التحقيق الجنائي في الدول الكبرى، لجأت هي الأخرى إلى هذا الأسلوب للكشف عن الجرائم والمجرمين... وحققت بذلك خطوات واسعة في أنشطتها التحقيقية.

ويبقى أن كلمة الفصل في الموضوع كله، تلك الآية المدهشة التي وردت في كتاب الله، والتي تتحدث كيف أن مرور الزمن كفيل بالكشف عن الحقائق المطابقة تماماً للمعطيات القرآنية، فيما سيقود البشرية الضالّة إلى مرافئ الإيمان: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وسواء جاءت هذه الرؤية عن طريق مناهج البحث الأصيلة، أم تلك الملتوية، فالأمر سواء... وهو التأكيد الذي لا يقبل نقضاً ولا جدلاً على مصداقية ما ورد في كتاب الله من تلك المساحات الكبيرة التي محّضت للجان والشياطين... والتي لا يزال الكثير من السذّج والمغفلين يرفضون وجودها باسم الروح العلمية، وهي منهم براء: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طـه: ٦٩].



شيء عن اليهود في كتاب الله

يقدّم القرآن لكريم معطياته عن «اليهود» وفق محاور أو سياقات عديدة، لن يتسع المجال لاستعراضها، لكنها جميعاً تصب في حقيقة أن اليهودية عانت ـ بمرور الزمن ـ من تحريفات خطيرة، بعدت بها عن أصولها الصحيحة، وأهم هذه المحاور هي:

أولاً: المحور العقيدي، الذي ينصبّ على التأكيد على وحدة الأديان السماوية، من حيث المصدر، والوظيفة، والهدف، وعلى التحريفات الخطيرة التي عانتها الديانة اليهودية، فبعدت بها عن مسارها الصحيح. ومن ثم كان تأكيد القرآن على ضرورة الاحتكام إلى المعطيات الأساسية لليهودية، تلك التي تقودهم ـ بالضرورة ـ إلى قبول الدين الجديد الذي جاء «مصدّقاً لها» ومؤكّداً عليها: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤٢]، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ

وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩ ـ ٩٠]، ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، (وانظر سورة البقرة، آل عمران، المائدة، طه، الأنبياء، القصص، الحشر، للاطلاع على المساحات الواسعة التي عرضها القرآن الكريم عن هذا المحور).

ثانياً: المحور التاريخي، الذي يتحدث عن عدد من الوقائع التاريخية التي مرّ بها اليهود، وبرؤية شمولية متوازنة تسلط إضاءتها على الأسود والأبيض... السلب والايجاب في مسيرة اليهود عبر التاريخ... لكن المحصلة النهائية التي تؤول إليها هذه المعطيات التاريخية، هي أن اليهود بانحرافهم عن الصراط المستقيم عبر مسيرتهم التاريخية، وبتراكم مفردات هذا الانحراف انتهوا إلى موقع «المغضوب عليهم» الذي تمخض عنه كما هو معروف، نبذهم من العالم، وتشريدهم في الأرض: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ

وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٧].

ثالثاً: المحور الأخلاقي ـ النفسي، الذي يسلط ضوءه ناقداً محللاً التركيب النفسي الملتوي لليهودي وسلوكه الأخلاقي، الذي يرتطم وبديهيات القيم الإنسانية المتعارف عليها.

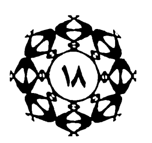
ويقف القرآن الكريم طويلاً عند هذه المسألة، كما وقف طويلاً عند المحورين السابقين... ساعياً إلى تشريح خصائصهم النفسية والاجتماعية والأخلاقية، وتحليل الأساليب والطرائق الملتوية، المنحرفة، الضالة، التي كانوا يعتمدونها مع قياداتهم وأنبيائهم، أو مع الأمم والجماعات والشعوب الأخرى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩٩ ـ ١٠٠]، ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩ ـ ٧٠]، ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ

ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: ٤١].

لقد أراد كتاب الله، منذ لحظات العصر المدني الأولى، حيث بدء الاحتكاك، أن يشنّ عليهم حملة (إعلامية) يفضحهم فيها، ويضع أساليبهم وطرائقهم وأخلاقياتهم وتكوينهم النفسي في دائرة الضوء، لكي يكون المؤمنون على بيِّنة من الأمر ويعرفون كيف يتحركون بحذر إزاء خصومهم.

وبمجرد أن نتذكر ما فعلته بنو إسرائيل منذ عهد موسى عليه السلام وحتى عهد زعيم الإرهاب الصهيوني مناحيم بيغن ومن بعده أرييل شارون، مروراً بكافة الفتن والفجائع والانشقاقات والانقلابات والحروب الطاحنة، وبمجرد أن نتذكر ردود فعل الأمم والشعوب إزاء المكر والحقد اليهوديين، وإحساس الأمم والشعوب قلّما يخطئ، بمجرد أن نتذكر هذا وذاك؛ فإننا سنعرف لماذا خصّ القرآن هذه الفئة الضالة، والمغضوب عليها، بتلك المساحات الواسعة من سوره وآياته البينات...

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].



الحياة التي يريدها كتاب الله!!

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]...

في هذه الآيات الثلاث ثمّة تأسيس لجوهر التنظيم الإسلامي للحياة البشرية: إنه الميزان... وضع كل شيء في حالة توازن مع ذاته، ومع الأشياء والكائنات الأخرى... حيث تجيء الآية التالية: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠]، بعد التأكيد مراراً على «الميزان» كأنها تريد أن تقول بأن الله ﷻ إذ وضع الأرض للأنام أراد لها أن تحيا تحت مظلة الميزان، فتكون الحياة سعيدة، جديرة بأن تعاش!! ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦]، ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]، ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]، ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟

﴿ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤]، ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [هود: ٨٥]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١].

❁ ❁ ❁

أما عن القسط الذي هو رديف الميزان، فهذه بعض شواهده: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ [يونس: ٤]،

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [هود: ٨٥]، ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]...

❁ ❁ ❁

ومع مفردتي الميزان والقسط، ثمة مفردات أخرى تتردد في جنبات القرآن... إنها الحق والعدل من أجل تأكيد دعوة القرآن إلى إقامة حياة وضيئة، عادلة، تقوم على الحق والعدل، وهما أكبر قيمتين في بناء الكون والعالم، فلا يطيش بها الميزان، كما طاش ولا يزال بعقائد وأديان ومذاهب ونظريات ونظم وفلسفات، ما لبثت أن تساقطت لأنها لم تقم على التأسيس الكوني المتمثل بالميزان والقسطاس والحق والعدل...

فلنتابع بعض شواهد هاتين المفردتين في كتاب الله، واللتين وردت أولاهما وهي الحق فيما يزيد على المائتين والثلاثين مرة، ووردت ثانيتهما وهي العدل بتصريفاتها المختلفة فيما تقرب من الثلاثين مرة: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ [البقرة: ١١٩]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [البقرة: ١٧٦]، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [آل عمران: ٣]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧٠]، ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]، ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا

جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٤]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]، ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس: ٣٥]، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦]، ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢]، ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الصف: ٩].

❁ ❁ ❁

أما عن العدل، فهذه بعض شواهده: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَتَمَّتْ

كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

❁ ❁ ❁

وإلى جانب (الميزان) و(القسط) و(الحق) و(العدل)، هنالك تأكيد قرآني متواصل على (الصراط) وهو الطريق المستقيم الذي يصل إلى هدفه دون أي قدر من الاعوجاج... بدءاً من سورة الفاتحة التي تتضمن دعوة المؤمنين في العالم بأن يلتزموا الصراط المستقيم، فلا تنحرف بهم الأهواء ذات اليمين وذات الشمال... وعلى مدى كتاب الله كله... يتدفق الخطاب القرآني كالسيل مؤكداً على الصراط... وهذه بعض شواهده: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧] من أجل أن يمضي المؤمنون بهذا الدين إلى أهدافهم متجنبين سلوك اليهود الملتوي، الذي استدعى غضب الله ﷻ، وضلال النصارى بالشرك المكشوف... هذا الدعاء الحار الذي يتردد على كل لسان في اليوم الواحد عشرات المرات... ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦]، ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]،

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥]، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤]، ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

❁ ❁ ❁

وفي مقابل هذا إدانة قرآنية متواصلة للاعوجاج، الذي هو نقيض الميزان والقسط والحق والعدل والتزام الصراط: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران: ٩٩]، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥]، ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٦]، ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [هود: ١٩]، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

فأيُّ دين أو عقيدة في العالم تنطوي تعاليمها على هذا القدر من الحسم والجزم والوضوح في إقامة حياة يسودها الحق والعدل، وتلتزم القسط والميزان... وتمضي إلى أهدافها على الصراط الذي يحميها من الانحراف ذات الشمال وذات اليمين، والخضوع

لإغواء الطواغيت والمشركين والأرباب الذين يسوقونها عبر الطرق المعوجّة المنبثقة عن رغبتهم الجارفة في تعبيد الناس لأنفسهم من دون الله؟!

إن هذا الدين بتأكيده المتواصل، وطَرْقه المستمرّ على قيم الحق والعدل والقسط والميزان والصراط؛ لهو الدين الذي يحرر الإنسان من شتى صنوف القهر والاستعباد والابتزاز والاستلاب... ويرفع قامته عالياً لكي لا يخضع إلا لله ﷻ... ولكي يحيا حياة طيبة آمنة سعيدة متوازنة، تحرسها قيم الحق والعدل والميزان والقسط... وتمضي إلى أهدافها على الصراط الذي يرفض أي جنوح أو اعوجاج...

❁ ❁ ❁

والقرآن الكريم وهو يتحدث عن هذه القيم، ويؤكد عليها، يربط ـ على طريقته المدهشة ـ بين الأرض والسماء... بين اليومي والأبدي... بين الموقوت والدائم... بين أسباب النزول وبين إطلاق الحكم لكي يمضي مخترقاً حواجز الزمن والمكان... بين الميزان الذي توزن به الأشياء اليومية، وبين ذلك الذي قامت عليه السماوات والأرض: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦]، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

ألا تعكس هذه الآيات... رؤية الإسلام الكونية الشاملة التي لا تغفل ـ وحاشا لله ـ عن أدقّ خصوصيات الناس، ولكنها ما تلبث أن تنقلهم إلى الفضاءات الواسعة للعالم والكون، فتجعل من الميزان خطاباً بيانياً يبدأ بوزن الحاجيات اليومية ثم يمضي مصعّداً باتجاه إقامة العدل بين الناس، وبناء العالم بما يجعله صالحاً لاستمرارية الحياة... بل بيوم القيامة العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، لكي يتلقوا جزاءهم العادل عن كل صغيرة في موازين الحاجات اليومية... وكبيرة في تجاوز التعاليم الدينية الكبرى التي تؤكد على التزام الحق والعدل والقسط بمفاهيمها الشاملة.

كل المذاهب والنظريات والمبادئ والأديان المحرّفة الأخرى التي طاش بها الميزان، ما لبثت أن تساقطت الواحدة تلو الأخرى لأنها لم تقم على الحق والعدل... ولأنها أغفلت التعامل بالقسط والميزان... وضعت في آذانها شمعاً لكي لا تصغي لخطاب الله الذي يدعوها إلى التزام الصراط، ومضت عبر الطرق المعوجّة، فضيّعت نفسها وكل المنتمين إليها، ولم تحصد في نهاية الأمر إلا الدمار والخراب...

والذي يمعن النظر في كتاب الله، من زاوية معينة، قد تتمركز بعبارة «وما هي الحياة التي يدعو إليها كتاب الله في هذا العالم»؛ يجد نفسه قبالة البعد الإنساني، الذي يستهدف إقامة حياة طيبة، متوازنة، آمنة، سعيدة، حرة، لا ظلم فيها ولا فساد

ولا انحراف... ومن خلال ذلك يستهدف تحقيق إنسانية الإنسان بأعلى وتائرها وأكثرها مقاربة لتكوينه وطموحاته كإنسان...

وعلى سبيل المثال فإن في الآيات (١٤٤ ـ ١٥٣) من سورة الأنعام تأكيداً على أن قاعدة هذا الدين هي (الحلال)، وأن (التحريم) الاعتباطي الذي يضيّق الخناق على مطالب الإنسان الحيوية أمرٌ ممقوت ومرفوض.

وفي الآيات (٢٦ ـ ٣١) من سورة النساء دعوة قرآنية لحياة يسودها التوازن، والحق، والتخفيف، وإدانة كل صيغ الميل والعدوان والظلم وأكل أموال الناس بالباطل واقتراف الكبائر التي تمسخ الحياة البشرية وتقودها إلى البوار: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وفي الآية (٩٧) من سورة النحل تأكيد على الحياة (الطيبة) التي يدعو إليها هذا الدين بالتزام الإيمان والعمل الصالح: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وفي الآيات (٦٢ ـ ٦٤) من سورة يونس أن المؤمنين يتلقَّوْن البشرى بكل ما تنطوي عليه من دلالات، في الدنيا قبل الآخرة، وأن ذلك هو الفوز العظيم، وأنهم يعيشون حياة آمنة مطمئنة لا خوف فيها ولا حزن: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

هذا إلى أن الله ﷻ يمنحهم الثبات في الحياة الدنيا وفي الآخرة (سورة إبراهيم الآية ٢٧).

وفي الآية (٥١) من سورة غافر وعدٌ إلهيٌّ بنصر رسله وأتباعهم المؤمنين في الحياة الدنيا قبل يوم القيامة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾... وولاية الله ﷻ لعباده المؤمنين تكلؤهم في الدنيا والآخرة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]... ووعد آخر للذين يقيمون حكم الله في الأرض، بأنهم سيأكلون من فوقهم ومن تحت أرجلهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وثمة حشود المقاطع والآيات القرآنية التي تفتح الطريق لإشباع الغرائز، وتضبط التعامل معها، بحيث لا تسمح بالإفراط أو التفريط... وآيات أخرى تحذّر من السرقة، والغش، وتتوعد القتلة بغير الحق بأشد أنواع العقاب في الدنيا والآخرة... وآيات أخرى تحمي ظهر الإنسان في غيابه عن الآخرين، وتنذر من يفعل ذلك بالويل والثبور، فيما لا نكاد نجده على الإطلاق في عقائد الوضاعين والكهنة والمشرعين بغير ما أنزل الله...

وثمّة الدعوة القرآنية المتكررة للالتزام بالعهود والإيمان والمواثيق، والتنديد بمن يخرقها... وبإقامة العلاقات الأسرية على المودة والمحبة والرحمة بين الزوج وزوجه، وبين الآباء والأبناء، وبين هؤلاء وآباءهم... وبصلة الرحم ووضعها في الدرجة التالية للتوحيد الذي هو قاعدة هذا الدين.

وفي الآيتين (٨٧ ـ ٨٨) من سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ يطرح القرآن معادلة ذات بعد إنساني تحريري، حيث يقرن تحريم الطيبات بالظلم، ثم يدعو إلى الإباحة، ولكن تحت مظلة التقوى والإيمان... وهي أكثر المعادلات إحكاماً لحياة إنسانية يتحرر فيها الإنسان من شد الضرورات، وبأكل الطيبات، ويتقي الله سبحانه وتعالى.

وفي الآيات (٥ ـ ١٨) من سورة النحل صورة رائعة للحياة التي يريدها كتاب الله، حيث ترد هذه المنظومة من نعم الله للبشرية، متمثلة بتوفير الحاجات الأساسية للإنسان، وبالخدمات، وبالجماليات، وبتسخير الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، وفي جعل فيزياء البحار تحمل الفلك وتقدم الغذاء وأدوات الزينة للناس، وفي إلقاء الجبال الرواسي بالأرض كي لا تميد بالناس... وبالنعم التي لا يحصيها عدّ من أجل جعل الحياة في هذه الدنيا جديرة بأن تعاش، شرط أن يتوجه الناس بالشكر والعرفان والامتنان للخلاق الذي أنعم عليهم بهذا كلّه...

ولن تتم الإفادة القصوى من هذه النعم إلا بأن تلتحم الأمة الإسلامية، وعلماؤها، بفيزياء العالم وجغرافيته، للكشف عن سنن الله ونعمه في العالم، وتسخيرها لخدمة الإنسان... وهي - إذا أردنا الحق - نقطة الانطلاق في بناء الحضارات: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وفي الآيات (٨٧ ـ ٩٣) من سورة المائدة دعوة مؤكدة أخرى إلى أكل الحلال الطيب، وإطعام المساكين وكسوتهم، وتحرير

الأرقّاء، واجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام لأنها رجس من عمل الشيطان الذي يسعى من خلالها إلى الإيقاع بين المسلمين، وإثارة العداوة والبغضاء، والصدّ عن ذكر الله...

وأما الآيات (١٣٦، ١٣٨ ـ ١٣٩، ١٤٢ ـ ١٥٣) من سورة الأنعام فتنطوي على حملة شاملة، وسخرية مرة، باتباع الأديان المحرّفة لتحريم ما أحلّ الله، حيث ترد هذه الآية التي تحسم الموضوع فيما لا يقبل لجاجة ولا إنكاراً: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

❁ ❁ ❁

بل إن القرآن يمضي خطوات أخرى في تصوير الحياة الإسلامية الآمنة، المتوازنة، السعيدة، المطمئنة، بتأكيده على التزيّن... وإضافة البعد الجمالي لبنية هذه الحياة من أجل أن تشع بالروعة والجمال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١ ـ ٣٢]، حيث ها هنا أيضاً تلتقي الرؤية القرآنية الثنائية التي تدير المنظور على جوانب الحالة كافة، فنجد أنفسنا قبالة (الجمال) و(الضرورة)... التزّين وإشباع الحاجات الأساسية.

حيثما قلّبنا أبصارنا في كتاب الله وجدنا الخطاب القرآني يحمل دعوة واضحة مؤكدة لبناء حياة إسلامية تلبّي حاجات الإنسان الضرورية، وتحرّره، وتفتح الطريق أمامه واسعاً عريضاً لكي يحيا حياة متوازنة، آمنة، متوحدة، وسعيدة... ولكن أين العقول التي تفقه... والقلوب التي تكسر ما علاها من صدأ، لكي تتلقى هذا الخطاب المشعّ وضاءة وطهراً؟!

❁ ❁ ❁

ثم ماذا عن غير المسلمين في المجتمع الإسلامي؟ إنهم بشهادة التاريخ... وقبلها، بتأسيسات كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واجتهاد فقهائه الكبار... تلقَّوْا حريتهم الدينية والمدنية كاملة، وعاشوا مع رفاقهم المسلمين، وباعترافهم هم، أجمل حياة، وهم يمارسون طقوسهم الدينية بحرّية، ويشاركون في بناء وصيرورة الحياة الاجتماعية والثقافية والإدارية والاقتصادية والعمرانية في وتائرها العليا، حيث برز منهم كبار الكتّاب والمترجمين والأطباء والمهندسين والوزراء والإداريين، دون أن يمسَّهم أحد بسوء أو يقف قبالة مطامحهم عائق واحد...

وبدلاً من إيراد الشواهد والتفاصيل التي يعجّ بها تاريخنا الحضاري، والتي سبق وأن عرضنا لها في أكثر من بحث وكتاب، لنكتفِ بهذا الموقف القرآني المدهش في حماية حقوق غير المسلمين والتنديد الصارم بكل من تسوّل له نفسه المساس بها من المسلمين!! والذي تتضاءل دونه سائر القمم الأخرى في مجال

التعامل العادل كالصراط مع الإنسان أيّاً كان موقعه في الزمن أو المكان أو الطبقة أو العرق أو المكانة أو ـ حتى ـ الدين! ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣].

وعن هذه الآيات يقول الشهيد سيد قطب: «إنها تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيراً ولا تعرف لها البشرية شبيهاً. وتشهد وحدها بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بدّ أن يكون من عند الله. لأن البشر ـ مهما ارتفع تصورهم ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم ـ لا يمكن أن يرتقوا ـ بأنفسهم ـ إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات، إلّا بوحي من الله...

إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التي تحويها جعبتهم اللئيمة، على الإسلام والمسلمين... في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب، ويؤلّبون المشركين، ويشجعون المنافقين، ويرسمون لهم الطريق، ويطلقون الإشاعات، ويضللون العقول، ويطعنون في القيادة النبوية، ويشككون في الوحي والرسالة، ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج. والإسلام ناشئ في المدينة، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس، ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم، تمثل خطراً حقيقياً على تماسك الصف المسلم وتناسقه. في هذا الوقت الحرج الخطر... كانت هذه الآيات كلها تتنزل على رسول الله ﷺ وعلى الجماعة المسلمة لتنصف رجلاً يهودياً اتُّهم ظلماً بسرقة، ولتُدين الذين تآمروا على اتهامه، وهم بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذ هم عُدّة الرسول ﷺ وجنده، في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة»؟

«إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء، تآمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام ـ وان كانت تبرئة بريء أمراً هائلاً تقبل الوزن في ميزان الله ـ إنما كانت أكبر من ذلك هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أياً كانت الملابسات والأحوال، وكانت المسألة هي تطهير

هذا المجتمع الجديد، وعلاج عناصر الضعف البشري فيه، مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية في كل صورها حتى في صورة العقيدة، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس، وإقامة هذا المجتمع الجديد، الفريد في تاريخ البشرية، على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة، التي لا تدنّسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية، والتي لا تتدحرج مع الأهواء والميول والشهوات...».

«ولقد كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث، أو عدم التشديد فيه والتنديد به وكشفه هكذا لجميع الأبصار، بل فضحه بين الناس، على هذا النحو العنيف المكشوف، كان هناك أكثر من سبب لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تتحكم وتحكم، ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هي التي يرجع إليها هذا المنهج! كان هناك سبب واضح عريض، أن هذا المتهم (يهودي) من (يهود) يهود التي لا تدع سهماً مسموماً تملكه إلا أطلقته في حرب الإسلام وأهله، والتي يذوق منها المسلمون الأمرَّيْن، والتي لا تعرف حقاً ولا عدلاً ولا نصفة، ولا تقيم اعتباراً لقيمة واحدة من قيم الأخلاق في التعامل مع المسلمين على الإطلاق»!

«وكان هناك سبب آخر، وهو أن الأمر في الأنصار الذين آووا ونصروا، والذين قد يُوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يُوجد من الضغائن، بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي يبعد شبح الشقاق! وكان هناك سبب ثالث هو عدم إعطاء اليهود سهماً

جديداً يوجهونه إلى الأنصار، وهو أن بعضهم يسرق بعضاً ثم يتهمون اليهود! ولا يدعون هذه الفرصة تفلت للتشديد عليها».

«ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله... أن يقام ميزان العدل في الجماعة المسلمة لتحكم بين الناس مجرداً من جميع الاعتبارات الأرضية، والمصالح القريبة الظاهرة، والملابسات التي يراها الناس شيئاً كبيراً لا يقدرون على تجاهله».

«ومن ثم لم يكن هناك مجال للباقة! ولا للكياسة! ولا للسياسة! ولا للجهارة، في إخفاء ما يُحرج وتغطية ما يسوء. ولم يكن هناك لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرية! ومراعاة الظروف الوقتية المحيطة بها! هنا كان الأمر جِدّاً خالصاً لا يتحمل الدِّهان ولا التمويه! وكان هذا الجِدّ هو أمر هذا المنهج الرباني وأصوله، وأمر هذه الأمة التي تعد لتنهض بهذا المنهج وتنشره، وأمر العدل بين الناس في هذا المستوى الذي لا يرتفع إليه الناس إلا بوحي من الله»!

«وينظر الإنسان من هذه القِّمة السامقة على السفوح الهابطة، في جميع الأمم على مدار الزمان، فيراها هناك في السفوح، ويرى بين تلك القِّمة السامقة والسفوح الهابطة، صخوراً متردية هنا وهناك، من الدهاء والمراء والسياسة والكياسة والبراعة والمهارة ومصلحة الدولة ومصلحة الوطن ومصلحة الجماعة، إلى آخر الأسماء والعنوانات، فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها الدود» (في ظلال القرآن ٥/٢١٤ ـ ٢١٩، باختصار عن ط٣).

أليس هو الميزان الذي بُنيت عليه السماوات والأرض بالحق والعدل؟ أليس هو القسط بين الناس كافة، بغضّ النظر عن أديانهم وانتماءاتهم؟ أليس هو الصراط الذي لا عوج فيه ولا أمتاً؟

ثمة لقطة من فيلم (عمر المختار) الذي أخرجه مصطفى العقاد (رَحِمَهُ اللَّهُ) أريد أن أختم بها مقالي هذا لأنها تعبّر عن الكثير مما يمكن أن يُقال، ومما بدأنا به الحديث حول ارتباط الميزان بقضية العدل في العالم، وليس بمجرد التطفيف في حاجات الناس اليومية... إنه ـ دائماً ـ الارتباط الصميم بين الخاص والعام، بين الموقوت والدائم، وبين الأرضي والكوني... فلنرَ...

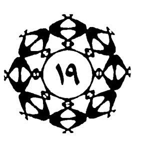
عمر المختار، قائد حركة المقاومة الليبية للغزو الإيطالي الفاشستي الذي لا يرحم، يقف قبالة مجموعة من صبيان الكتاتيب، يعلمهم التلاوة... حتى إذا وصل الآيات التي تقول: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]، جاءه مستشاره وساعده الأيمن لكي يهمس في أذنه أن الايطاليين الفاشست استغلوا فرصة غياب الرجال عن إحدى القرى الليبية فانقضوا عليها وقتلوا كل من فيها من الشيوخ والنساء والأطفال...

توقف عمر المختار لحظات... ثم نهض قائماً وهو يردد: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾... ثم ما لبث أن أصدر أوامره

إلى المجاهدين الذين انطلقوا كالسهم إلى الكتيبة الإيطالية نفسها التي ذبحت القرية المسالمة، فأبادوها عن آخرها...

فذلك هو (القسط) وذلك هو (الميزان)!!





رحلة مع الصوت في كتاب الله

[١]

هذه هي الرحلة الرابعة مع كتاب الله... كانت الرحلة الأولى مع عالم الحيوان، والثانية مع دنيا النبات (وقد نشرتا ضمن كتابي: مع القرآن في عالمه الرحيب)، وأما الثالثة فكانت مع اللون (وقد نُشرت ضمن كتابي: حول استراتيجية الأدب الإسلامي)، وأما هذه الرابعة فمع الصوت في كتاب الله...

الصوت؟!

نعم... ولقد أغراني الموضوع منذ عهد بعيد، ولكني كنت كلما فكرت في الإقدام عليه انتابني التردد بسبب قناعتي الخاطئة أنه ليس ثمّة مفردات كافية للصوت في كتاب الله تعالىَ في بحث مستقل.

ويوماً خطر ببالي أن أجرّد مفردات الصوت ودلالاته في كتاب الله من بدئه حتى منتهاه... ففوجئت بدفق مدهش من المفردات المرتبطة بالصوت، والتي تشكل سيالاً مترعاً بالخصوبة والعطاء...

يا الله!.. كم أن هذا الكتاب المعجز، كما وصفه رسول الله ﷺ

الذي أُنزل عليه (**لا تنقضي عجائبه**). وهذه هي إحدى عجائب القرآن... هذا الكمّ الكبير من مفردات الصوت في سوره ومقاطعه وآياته البينات.

فبدأتُ الجمع... وإذا بي أجدني قبالة خمسة محاور رئيسية ينطوي كل منها على حشد من الآيات...

في المحور الأوّل عرض للصوت في جانبه الإيجابي، يقابله محور ثانٍ يعرض للصوت في جوانبه السلبية. أما المحور الثالث، فينطوي على إشارات تتعلق بخلق الكون والطبيعة، وأما المحور الرابع، فيُعنى بالمعجزات وصيغ العقاب التي انصبت على الأقوام المارقة... حتى إذا انتهينا إلى المحور الخامس، وهو أكثرها اتساعاً، فإننا سنجده يتحدث عن يوم القيامة وعن العقاب والثواب!!

فلتبدأ رحلتنا المباركة مع (الصوت) في كتاب الله...



[٢]

النطق الذي به تتميز الأصوات... هو إحدى معجزات الله في الخلق، والذي ينبني على شبكة من الأجهزة تعمل كل منها بالتنسيق مع بعضها: فهناك اللسان، والشفتان، والحلقوم، واللهاة، والتراقي، والقصبة الهوائية، والأنف، والأسنان، ومسارب الهواء دخولاً وخروجاً، وهي الأمور التي يُعنى بها (علم الأصوات) و(مختبراته)... ونحن نعرف جيداً أننا بدون الأداء اللغوي الواضح البيّن الذي تتواصل به الأمم والشعوب والجماعات، فلن نتقدم خطوة واحدة باتجاه الفعل

الحضاري، والعمران، والتواصل الاجتماعي. ومن أجل هذا يجيء قَسَم الله ﷻ منطوياً على معجزة النطق: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

وترتبط بالنطق ظاهرة أخرى لا تقل إعجازاً، هي **اختلاف اللغات** بين أمة وأمة وبين جماعة وأخرى بهدف التنويع الذي قامت عليه بنية السماوات والأرض والعالم والحياة... فتحت مفهوم الوحدة والتنوع، والذي يطبع الحضارات البشرية بطابعه الواضح، ويدفعها إلى التنافس والتبادل والعطاء، يجيء تنوع الألسنة واللغات، وهو بحدّ ذاته إحدى آيات خلق الله التي يعرفها جيداً علماء الاجتماع والاثنولوجي والتاريخ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

ولقد أخذها إبراهيم عليه السلام على قومه الوثنيين، الذين حطم أصنامهم، حُجّةً بأن آلهتهم المدّعاة لا تستطيع نطقاً ولا بياناً فأسكتهم بحجته تلك: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٥].

وفصاحة اللسان استكمال للحديث عن وظيفة الصوت، ولهذا دعا موسى عليه السلام ربه أن يعينه بأخيه هارون ذي البيان الواضح الذي لا لبس فيه ولا غموض: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

بل إن الخطاب النبوي لا يمكن أن يؤدي وظيفته الكاملة إلا بإيصاله، بقوة اللغة، إلى المخاطبين، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١] وهذا يضع على عاتق الجماعات المؤمنة في العالم، وآخرها المسلمون، مهمة مواصلة الطريق، وإيصال القول إلى سمع العالم كله، وعقله، ووجدانه، من أجل التزامه بالصراط، وتجاوزه الطرق المعوجّة التي قادته إلى الضلال والبوار...

والآن... ونحن في زمن ما يسمى بالتقدم الأسطوري في وسائل الإعلام، وبخاصة القنوات الفضائية، والصحافة اليومية، فإن علينا أن نشدّ العزم لرفع خطابنا وإيصال صوتنا بلغات العالم كلّه، وأن نكفَّ عن خطاب بعضنا بعضاً، وننتقل إلى الآخر الذي يتحرق شوقاً لمعرفة ما يريده هذا الدين، الذي هو في بدء التحلل ونهايته، مركب الإنقاذ الوحيد للبشرية المعذبة الضالة...

والأذان: أي رفع الصوت بدعوة الناس لأداء عباداتهم، يرتبط هو الآخر بالصوت... وفضلاً عن الأذان الذي يدعو المؤمنين للصلاة خمس مرات في اليوم، فإن هناك أذاناً آخر: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]...

وها هوذا الأذان في الناس بالحج، يعتمد اليوم وسائط الإعلام، لكي ما يلبث أن يصل إلى كل أذن تتلهف لسماع الصوت، وتنطلق بآليات المواصلات السريعة لتلبية النداء.

ومع الأذان، هناك جملة من المعطيات الصوتية ذات البعد

الإيجابي، من مثل الحوار: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]...

و(**النجوى**)، وهي الحوار الهادئ بين طرفين: ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٢ ـ ١٣] بهذه المساحة الواسعة من السماحة التي تجد البدائل المناسبة دائماً للمأزومين فتخرجهم من المآزق!!

و(**غض الصوت**): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

و(**الجهر به**): إذ دائماً ما يدير القرآن كاميرته على الحالة الواحدة من وجهيها، لكي يعطي الصورة جانبها السليم، وصيغتها الموزونة، ولهذا نادى نوح عليه السلام: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٨ ـ ٩]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١٠ ـ ١١].

و(**النداء**)، الذي طالما يجيئه الجواب!! ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً

خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٨ ـ ٤٩]، ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨]، ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

و(**الذكر**) و(**الدعاء**)، حيث يقسم الله ﷻ بالملائكة التي تقف صفاً عند ربها، وتتراصّ في الصف، وتزجر السحاب، وتجيء بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١ ـ ٣]. وكقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥ ـ ٦]، ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

ثم يجيء (**الرمز**)، أي التخاطب بالإشارة، والذي يستغنى به عن الكلام، لحكمة يريدها الله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ

ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١٠ ـ ١١]، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

❁ ❁ ❁

[٣]

أما العروض القرآنية للصوت في أبعاده السلبية، فكثيرة هي الأخرى، ولنبدأ بأشدِّها استهواء للناس على مدار الزمن والمكان، وإغواء لهم، وصدّاً عن الإذعان لكلمة الحق والتزام الصراط المستقيم... وانسياقاً وراء الجهل والاستكبار الفارغ...

إنها (**لهو الحديث**): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦ ـ ٧].

قال ابن كثير في تفسيره: «لما ذكر ﷻ حال السعداء وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ﷻ وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات التطريب... قال ابن مسعود: (لهو الحديث) هو الغناء، والله الذي لا إله إلا هو،

يردِّدها ثلاث مرات. وقال الحسن البصري نزلت هذه الآية في **الغناء والمزامير**.

وقيل أراد بقوله ﴿يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ اشتراء المغنيّات من الجواري... قال النبي ﷺ: «لا يحلُّ بيع المغنِّيات ولا شراؤهنّ ولا تجارة فيهن، وأكل أثمانهن حرام». وفيهن أنزل الله ﷻ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال الضحاك: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني الشرك.

واختار ابن جرير أنه كل كلام يصدّ عن آيات الله واتباع سبيله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. أي هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تُليت عليه الآيات القرآنية، ولّى عنها وأعرض وأدبر وتصامم ـ وما به صمم ـ كأنه ما سمعها، لأنه يتأذّى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يوم القيامة يؤلمه كما تألّم بسماع كتاب الله وآياته» (مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨١، المجلد الثالث، ص ٦٢ ـ ٦٣).

والجدل بين فقهاء المسلمين لا يزال قائماً بصدد الموقف من الغناء، فمنهم من يحرِّمه تحريماً مطلقاً، ومنهم من يقيّد سماعه بالحالات التي يرتبط بها. فإذا ارتبط بالميوعة، والاختلاط، والإثارة الجنسية، والتهتّك والوقوع في المحرمات، واعتمد كلمات الفحش والبذاءة، وأغرى بمصائد الشيطان؛ فهو

الحرام... وان تحرّر من هذا كله ودعا إلى الحياة الوضيئة الطاهرة، وحفّز الهمم، وبشّر بالقيم العليا، كما تفعل الأناشيد الإسلامية، مثلاً، فهو الحلال...

وعلى أية حال، فإن ربط كلمة الحديث في كتاب الله باللهو تحمل دلالتها الواضحة على ما يقود إلى الضلال ولهذا يشنّ القرآن حملته الصارمة على هذه الفعالية المضلّة التي تقوم على الجهل بحقائق الأشياء، والتي يصرّ مقترفوها على الاستمرار فيها، وعلى وضع الشمع الأحمر في آذانهم كيلا ينصتوا لكلمة الحق، وبالتالي يجيء توعُّدهم بالعذاب الأليم...

ترتبط بذلك ممارستان ينهى عنهما القرآن، لأنهما تقودان إلى ما لا يرتضيه المسلم الجاد لزوجه وإخوانه وبناته... بل لنساء المؤمنين جميعاً... وهما (**الخضوع بالقول**) و(**ضرب الأرجل**) للإعلان عما يخفى من زينة النساء: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

في الآية الأولى يأمر الله ﷻ نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهنّ في ذلك، بأنهن إذا اتقين الله ﷻ كما أمرهن فإنهن لا يشبههنّ أحد من النساء ولا يلحقهنّ في الفضيلة والمنزلة: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ ويعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي دغل.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير. ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

أما في الآية الثانية، فقد كانت المرأة في الجاهلية إذا مشت في الطريق، وفي رجلها خلخال صامت، لا يُعلم صوتها، ضربت برجلها الأرض، فيسمع الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك لما تثيره من فتنة ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى عنه.

ورفع الصوت لدى خطاب الرسول ﷺ والجهر له بالقول فيما يتجاوز حدوده المعقولة مما نهى عنه كتاب الله، خاصةً وأنه يخاطب قوماً حديثي عهد بالبداوة، وهم بأمسّ الحاجة إلى من يشكمهم عن الانفلات في التعامل مع الآخرين، فكيف مع رسول الله ﷺ؟ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤ ـ ٥]، ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. ويبلغ من التنفير من رفع الصوت

وتجاوز الحدّ المعقول أن يشبِّهه كتاب الله بصوت الحمير، وهو ـ كما يعرف الجميع ـ أبشع الأصوات وأكثرها نشازاً على الإطلاق: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

يقابل ذاك غض الصوت عند خطاب رسول الله ﷺ فيما يليق بمكانته، وفيما يعكس أدب الذي يتحدثون إليه، فيما سينالون عليه المغفرة والأجر العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

و(**النجوى**)، التي كان يهود المدينة يمارسونها كجزء من الحرب النفسية ضد رسول الله ﷺ وأصحابه ودعوته، مرفوضة هي الأخرى في كتاب الله... «وقد كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مرّ بهم الرجلُ من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم. فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٨] أي يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ﴾ وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يصرّون عليها ويتواصَوْن بها... وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ

أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ﴾ [المجادلة: ٨] أي يفعلون هذا ويقولون في أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن لأن الله يعلم ما نسرُّه، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك الله أن يعاجلنا بالعقوبة في الدنيا، فقال الله ﷻ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨] أي جهنم كفايتهم في الدار الآخرة: ﴿يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]... ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠] أي ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ وهي المسارّة حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً: ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ليسوءهم، ﴿وَلَيْسَ﴾ ذلك ﴿بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ومن أحسّ من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله فإنه لا يضره شيء بإذن الله... (مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٦٢ ـ ٤٦٣).

ويستمر كتاب الله في إدانة **الحديث الخافت**، أي الهمس، إذا كان في أمر سلبي، وذلك عندما قصّ علينا واقعة أصحاب الجنتين، الذين انطلقوا لكي يحصدوا ما زرعوه، وجرى بينهم حوار هامس استهدف منع المساكين من الحصول على حصتهم من ثمار الجنتين: ﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم: ٢٣ ـ ٢٤].

وثمّة حشد آخر من المفردات القرآنية تتعلق بالجانب السيئ من الصوت... منها (**الخوار**): ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا

حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٧ ـ ٨٩].

و(**التأتأة**)، أو احتباس الأحرف في الحلق: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٢]، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٣].

و(**الوقر**) الذي هو أشبه بالشمع الأحمر الذي يوضع على الأسماع فيصمّها، ويعزل أصحابها عن سماع كلمة الحق، ويقودهم إلى الضلال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]، ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وشبيه بهذا، **الختم** على الأسماع، الذي يصدّها عن سماع كلمة الحق ويتركها للحيرة والضلال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وسدّ منافذ السمع **بوضع الأصابع في الآذان**، كي لا تصغي لدعوات الهدى التي تسعى لأن تخرجها من الضلال: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا

دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وثمّة موانع الحق غير الحسّية، والتي تنبثق من داخل النفس البشرية بصيغة وسوسة خافتة يمارسها الشيطان لإغواء بني آدم: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طـه: ١٢٠ ـ ١٢١]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

ويتذكر المرء ها هنا حشود الفجّار على مدى العالم كلّه: في السينما والمسرح والقنوات الفضائية والصحف والمجلات والمسابح والحمامات، التي تسعى جاهدةً لتعرية الناس والكشف عن سواءتهم، فيما حوّل العالم في العقود الأخيرة إلى ماخور كبير، ضاعت فيه إنسانية الإنسان، وكشّر الحيوان الجائع في داخله عن أنيابه، وأخذ البعض ينزو على البعض بعيداً عن أيِّ ضابط أخلاقي، أو ذوق إنساني، حتى أصبح زنى المحارم أمراً مشاعاً... والزواج المثليّ يعقد في باحات الكنائس، ويصوَّت على إقراره في البرلمانات، وتُعقد من أجله المؤتمرات الدولية الكبرى... بل إن عجلة الكشف عن السوءات مضت إلى اغتصاب الطفولة... وتعدّت ذلك إلى كبار القسس والكرادلة في مؤسسة الفاتيكان التي تتزعم المسيحية المتطهرة في العالم!! حيث صرنا نسمع عن الممارسات

الجنسية الفاحشة بين كبار القسس أنفسهم... ولا يدري المرء إلى أين ستنتهي هذه الموجة العارمة التي حذّر منها كتاب الله ﷻ...

وهناك التحذير القرآني من جملة أخرى من الممارسات الخاطئة المرتبطة بالصوت: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]...

والحق فإن التقوى هي صمّام الأمان الذي يمنع ألسنة الناس من الانطلاق بما لا يرضاه الله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨] فهذا هو الاستثناء أما القاعدة فهي رفض **الجهر بالسوء من القول**.

واللغو في الإيمان قد يصدر عن غير نية حاسمة فلا يحاسب عليه، وتلك هي سماحة هذا الدين ويسره وتخفيفه عن الناس: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وكان العرب الوثنيون عندما يطوفون بالبيت يصفّرون بأفواههم ويصفقون بأيديهم، وهم عراة، ويصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته، ويستهزئوا بالمؤمنين، ويصدّوهم عن سبيل الله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥] وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي.

وأخيراً تجيء حملة القرآن المتطاولة على الكافرين الذين اختاروا الضلال على التزام الهدى، والطرق المعوجّة على الصراط، **والصمم على سماع نداء الحق:** ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ [المائدة: ٧١]، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ [المائدة: ٧١]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٣]، ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢]، ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الزخرف: ٤٠]، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ [الفرقان: ٧٣]، ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ [هود: ٢٤].

❁ ❁ ❁

[٤]

ثمة إشارات قرآنية تتعلق بخلق الكون والطبيعة وترتبط بالصوت...

في بدء الخلق الكونيّ كانت السماوات والأرض ملتصقة بعضها ببعض، فجاء الأمر الإلهي بفتقهما، أي بفصل السماوات عن

الأرض: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]...

ولا ريب أن **الفتق** الذي هو أشبه بتمزيق الكتلة الواحدة المتراصّة، يُخرج صوتاً مركّزاً رهيباً بمستوى الواقعة التي يتم التعامل معها... وثمّة إشارة مدهشة في هذه الآية التي تتوجه بالخطاب إلى الكفار، وليس إلى المؤمنين. ذلك أن الكفار هم الذين سيقدّر لهم أن يكتشفوا بدايات الخلق فيما أطلقوا عليه مبدأ (الانفجار العظيم الـ Big Bang) والذي يكاد يُجمع عليه معظم الكوزمولوجيين عبر العقود الأخيرة من الزمن.

وهنالك إشارتان معجزتان ترتبطان بالصوت، في بنية الكون، تتمثل أولاهما بالقَسَم الإلهي في السورة التي تحمل اسم (الطارق): ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١ ـ ٣]. فأما مفسرونا القدماء، حيث لم يكن علم الكوزمولوجي قد شب في الطوق، ولم تكن المسابير الفضائية قد بلغت الشأو الذي بلغته في العصر الحديث، فقد فسروا هذه الآيات بما أتيح لهم من معرفة محدودة، فلم يتوصلوا إلى أمر قاطع، ولكن الذي حدث في عام (٢٠٠٧م) تحديداً أن المسابير الفضائية اكتشفت في الأعماق البعيدة للكون، نجوماً في مسرحه وهي تطرق كل ما يمرّ بها من أجسام وتثقبها، ويجيء هذا الكشف المدهش لكي يضيف معجزة أخرى إلى التفسير العلمي لكتاب الله.

والأمر نفسه ينطبق على الكشف العلمي في العام نفسه لنجوم

تسبح في مسرح الكون الكبير، بصمت دون أن تحدث جلبة ولا ضوضاء، وتكنس في طريقها كل ما يمرّ بها من أجرام... ونحن نقرأ هاتين الآيتين: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥ - ١٦] فيأخذنا العجب لهذا التطابق المدهش بين هاتين الآيتين، بدلالة مفرداتهما الواضحة المحددة، وبين الكشف العلمي الأخير هذا...

وثمّة القَسَم بالعاصفات في سورة المرسلات: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ١ - ٧] والعاصفات عصفاً هي الرياح إذا هبّت بتصويت!!



[٥]

في المحور الرابع نلتقي بجملة من المعجزات الإلهية التي انصبّت على الأقوام المارقة، بعد دعوتهم المتطاولة إلى الإيمان، وإلى نبذ أديانهم الملتوية التي لا يستقيم معها منطق... والتحوّل إلى الحياة الوضيئة، الطاهرة، المتوحدة، التي جاء الأنبياء لكي يقودوهم إليها، ولكنهم أبوْا إلا الإصرار على كفرهم وظلمهم وسلوكهم المرذول... ولطالما أنذرهم الأنبياء بأنهم إن استمروا على موقفهم هذا فسوف يجدون أنفسهم فجأة قبالة العذاب الكبير الذي لا يُبقي ولا يذر... ولكنهم لم يسمعوا أو يلتفتوا للنذير...

وإحدى صيغ العذاب الذي دُهي به الكفرة الفجرة... هو

الصيحة: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٤]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]، ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٩ ـ ٤١]، ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧ ـ ٦٨].

«﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة على تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم، وتهدّدوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات» (مختصر ابن كثير ٣٧/٣)...

«والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد تدمر كل شيء بأمر ربها، فأصبحوا هلكى كغثاء السيل، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه» (مختصر ابن كثير ٥٦٥/٢).

«فبادوا عن آخرهم، لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهمدُ يبيسُ الزرع والنبات... و(المحتظر) هو المرعى بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح. (مختصر ابن كثير ٤١١/٣).

وقد يسميها كتاب الله (**الطاغية**): ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] وهي **الصيحة**.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٣ ـ ٧٦]. والصيحة هي «ما جاء قومَ لوط من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها. وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبِها وجعلِ عاليَها سافلَها وإرسال حجارة السجيل عليهم» (مختصر ابن كثير ٣١٦/٢).

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾... فالذين يجتازون اليوم الصحراء الفاصلة بين العراق والأردن، ويقتربون من حافات الضفة الشرقية يرون بأم أعينهم الحجارة السوداء منتشرة هناك على مدى البصر، ولسوف تظل كذلك إلى ما شاء الله، ذكرى لعقاب أولئك الذين كانوا يتعاطون الخبائث ويأتون الرجال من دون النساء، فسنُّوا بذلك واحدة من أبشع صيغ العلاقة الجنسية في حياة المجتمعات.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤ ـ ٩٥].

«لما يئس نبي الله شعيب من استجابة قومه له قال: ﴿يَا قَوْمِ

ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود: ٩٣] أي طريقتكم، وهذا تهديد شديد ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ على طريقتي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ أي مني ومنكم ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟﴾ أي انتظروا ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤] أي هامدين لا حراك بهم. وذكر ها هنا أنهم اتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وانما ذكر في كل سياق ما يناسبه، وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [هود: ٩٥] أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار وشبيهاً بهم في الكفر، وكانوا عرباً مثلهم». (مختصر ابن كثير ٢/٢٣١).

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٨ ـ ٢٩]...

فبعد حوار (حبيب النجار) الداعية النصراني الموحّد مع هؤلاء الكفرة الذين لم يستجيبوا لنداء الرسل الثلاثة إليهم، قاموا بتعذيبه وقتله، فكانت مكافأة الله له إدخاله الجنة، وعقاب المدينة الفاجرة بالصيحة التي كنستهم من الوجود... «قال المفسرون: بعث الله ﷻ عليهم جبريل عليه الصلاة والسلام، فأخذ بعضادتيّ باب بلدهم ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون عن آخرهم،

لم يتبق بهم روح تتردد في جسد، وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية». (مختصر ابن كثير ٣/١٦٠).

ومع الصيحة، هنالك **(الصواعق)** بكل ما تحمله من صوت مرعب مخيف، وما تتمخض عنه من التدمير والإهلاك. ولعل الصيحة هي الصاعقة، كما توحي الآيات التي تتحدث عن الموضوع: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧] «أي بعث الله عليهم صيحة ورجفة، وذلّا وهواناً، وعذاباً ونكالاً ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي من التكذيب والجحود». (مختصر ابن كثير ٣/٢٥٩).

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣ ـ ٤٥].

وقد تأتي الصواعق عقاباً للكفار، على إطلاقهم، دون تحديد: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

أو عقاباً على التطاول على جلال الله، وتجاوز حدود التأدّب في التعامل معه ﷻ، كما حدث مع بني إسرائيل الذين طالما أساؤوا تأدّبهم مع الله جل في علاه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]. بل إنها أخذت حتى نبيّ الله وكليمه موسى عليه السلام عندما تجاوز حده وطالب بأن ينظر إلى الله!! ونحن نعرف أن مسّاً كهربائياً خفيفاً

قد يصعق الإنسان ويقضي عليه، فكيف بمقابلة الله جلّ في علاه ذي القوة المطلقة والجبروت العظيم الذي يصف نفسه بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد تأتي، الصواعق، في سياق الأمثال التي يضربها كتاب الله لتقريب المفاهيم إلى العقول بالتخييل الحسّيّ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٦ ـ ٢٠].

وقصف الريح، والريح الصرصر... والريح العقيم... بما تنطوي عليه من أصوات مرعبة، ترد في كتاب الله مراراً، لتصوير ما أصاب المكذبين من عقاب رهيب... والمفردات القرآنية ها هنا تعبّر عن الويل الذي حاق بأولئك المكذبين: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]، ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢]، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨]، ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٩].

وفي المقابل، فإن القرآن يصوّر عقاب الأمم والجماعات الفاجرة بصورة الصمت المطبق في استسلامهم لأقدار الله: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]، «أي ما زالت تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم، دأبهم وعادتهم حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً». (مختصر ابن كثير ٢/٥٠٣).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ [مريم: ٩٨]، «أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم صوتاً؟». (مختصر ابن كثير ٢/٤٦٨).

وثمّة الجانب الإيجابي في التعامل القرآني مع الصوت، وفي سياق المعجزات التي تخرق السنن الطبيعية لدعوة الكفرة والفجار إلى الصراط... كواقعة أصحاب الكهف الذين **ضرب الله على آذانهم** كي يفصلهم عن العالم مِن حولهم ويجعلهم يغطّون في نوم

عميق القرون الطوال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١١ ـ ١٢].

وكنعمة الله على داود وسليمان عليهما السلام بجملة من الميزات التي لم تُعطَ لأحد من العالمين: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]: «يخبر الله تعالى عما أنعم به على عبده داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكّن، والجنود ذي العدد والعُدّة، **وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم**، الذي كان إذا سبّح به تسبح معه الجبال الراسيات، الشم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ: (لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود). ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوِّبِى﴾ أي سبّحي، والتأويب في اللغة الترجيع. فأُمرت الجبال والطير أن ترجِّع معه بأصواتها». (مختصر ابن كثير ١٢٢/٣).

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] «وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور، وكان إذا ترنّم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وتردّ عليه الجبال تأويباً». (مختصر ابن كثير ٥١٦/٢ ـ ٥١٧).

أما سليمان عليه السلام، فقد عُلّم منطق الطير، وواقعته مع الهدهد

معروفة: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦] «وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً على اختلاف أصنافها» (مختصر ابن كثير ٦٦٨/٢]، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. أي حتى إذا مرّ سليمان بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] أي خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم. ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها، فتبسم ضاحكاً، ودعا ربه أن يُلهمه شكر نعمته التي منَّ بها عليه من تعليمه منطق الطير والحيوان. (مختصر ابن كثير ٦٦٨/٢).

بل إن إحدى المعجزات التي ترتبط بالصوت هي أن **يسبح الرعد بحمده** والملائكة من خيفته: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، «كقوله ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]... وكان ﷺ إذا سمع الرعد قال: (سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته)... إن هذا الوعيد شديد لأهل الأرض. وقال: (إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً)...». (مختصر ابن كثير ٢٧٤/٢).

وهناك صراخ الفجرة الكفرة وهم يجابهون الويل الإلهي الذي يتنزل عليهم عقاباً لإصرارهم على الكفر والضلال... حيث لا يُجدي

الصراخ بعد إذ صدر الأمر الإلهي بالعذاب، وفات الأوان: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤ ـ ٦٧]: «أي لا يجيركم أحد مما حلّ بكم؛ سواء أجأرتم أو سكتّم لا محيد ولا مناص ولا وزر، لزم الأمر ووجب العذاب. وقد كنتم إذا دُعيتم أبيتم، وإذا طُلبتم امتنعتم». (مختصر ابن كثير ٢/٥٦٩).

❁ ❁ ❁

[٦]

أما في مرحلة الانقلاب الكوني، الذي تتغير فيه معادلات السماوات والأرض، وما يعقبها من بعث، وحساب، وجنة أو نار... فإن للصوت مساحة ملحوظة فيها... وإن جرس الكلمات ذاتها ليصكّ الأسماع وهي تتحدث عن يوم الهول هذا: **الصاخّة، الزلزلة، القارعة، الطامّة، الراجفة، الرادفة، المَوْر، النسف، الرجّ، البسّ، الدكّ، الغاشية، الدمدمة، النقر في الناقور،... النفخ في الصور... والصيحة!!**

فلنتابع هذه الكلمات واحدة واحدة لتأكيد ما تنطوي عليه من عنف صوتي.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣ ـ ٣٧].

والصاخّة تعني يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تصخّ الأسماع، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمّها. (مختصر ابن كثير ٣/٦٠٢).

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ ـ ٢].

وزلزلة الأرض، وإخراج أثقالها، تنطوي بالضرورة على رعبها الصوتي الذي يجعل الناس وكأنهم يعانون من السكر الشديد!!

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ ـ ١٠] «أي تتحرّك تحريكاً وتدور دوراً، واستدارتها وتحركها لأمر الله ومَوّج بعضها في بعض ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي تذهب فتصير هباءً منبثاً وتنسف نسفاً». (مختصر ابن كثير ٣/٣٨٩).

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧] «أي يُذهبها عن أماكنها ويمحقها، ويسيِّرها تسييراً فيذرها قاعاً صفصفاً أي بساطاً واحداً... لا ترى فيها وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً... ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي سكنت ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الصوت الخفي، والمشي في سكون وخضوع». (مختصر ابن كثير ٢/٤٩٣ ـ ٤٩٤).



﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤ ـ ١٥] «أي فمدّت مدّ الأديم، وتبدّلت الأرض غير الأرض. ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي قامت القيامة». (مختصر ابن كثير ٥٤٣/٣).

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٣] «يخبر الله ﷻ عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة فقال ﷻ ﴿كَلَّآ﴾ أي حقّاً ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي وُطئت ومُهِّدت وسُوِّيت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه... والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي يُؤتى بجهنم» (مختصر ابن كثير ٦٣٨/٣).

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤ ـ ٦] «أي حُرِّكت تحريكاً فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها... أي زلزلت زلزالاً، ترجّ بما فيها كرجّ الغربال بما فيه... ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي فُتّتت تفتيتاً... ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء، أو كيابس الشجر تذروه الرياح». (مختصر ابن كثير ٤٢٨/٣).

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١ ـ ٥].

«**والقارعة** من أسماء يوم القيامة كالحاقّة والطامّة والصاخّة

والغاشية وغير ذلك. وقد قال ﷻ معظِّماً أمرها ومهوِّلاً لشأنها: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ أي في انتشارهم وتفرُّقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث .﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ يعني صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق». (مختصر ابن كثير ٣/٦٧٠).

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤ ـ ٣٦].

يقول ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ وهو يوم القيامة، سُمِّيت بذلك لأنها تطمّ على كل أمر هائل مفظع ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي أُظهرت للناظرين فرآها الناس عياناً. (مختصر ابن كثير ٣/٥٩٨).

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ [الغاشية: ١ ـ ٣]. والغاشية من أسماء يوم القيامة لأنها تغشى الناس وتعمُّهم... (مختصر ابن كثير ٣/٦٣٢).

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦ ـ ٨] «هما النفختان الأولى والثانية. أما الأولى ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ فكقوله جلّت عظمته ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]، وأما الثانية وهي الرادفة كقوله ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الحاقة: ١٤]». (مختصر ابن كثير ٣/٥٩٥).

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٢ ـ ١٤] «أي فإنما هو أمر من الله تبارك وتعالى... فإذا الناس قيام ينظرون... وهو أن يأمر الله تبارك وتعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيام بين الرب عز وجل ينظرون. ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ صيحة واحدة وأشدّ ما يكون الرب عز وجل غضباً على خلقه يوم يبعثهم: زجرة من الغضب». (مختصر ابن كثير ٥٩٦/٣).

والصيحة التي أتت على الأقوام الفاجرة في الدنيا فأبادتهم من الوجود، تجيء مرة أخرى في سياق الانقلاب الكوني والنفخ في الصور، لكي تقفهم أمام الله جل جلاله لتلقّي الجزاء: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩ ـ ٥٠]، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٣ ـ ٥٤] «يخبر الله تبارك وتعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يس: ٤٨]... فما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه والله أعلم، نفخة الفزع في الصور والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم. فبينما هم كذلك إذ أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلّا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، وهي صفحة العنق، يتسمّع الصوت من قبل السماء، ثم يُساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم، ولهذا قال تبارك وتعالى:

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي على ما يملكونه، الأمر أهمّ من ذلك ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾... ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحيّ القيوم، ثم بعد ذلك (نفخة البعث)». (مختصر ابن كثير ١٦٥/٣).

و(الدمدمة): ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤]: «أي غضب عليهم فدمّر عليهم، وجعل العقوبة نازلة عليهم من السماء». (مختصر ابن كثير ٦٤٥/٣).

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ ـ ١٠] «الناقور: الصور وهو كهيئة القرن ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي شديد ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي غير سهل عليهم». (مختصر ابن كثير ٥٦٨/٣).

ولـ (**الصور**) في كتاب الله مساحة واسعة، فهو يرد في العديد من الآيات التي تنطوي جميعاً على دلالتها الصوتية الهائلة وهي تتعامل مع الانقلاب الكوني المدهش الكبير: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣ ـ ١٥] «يقول الله ﷻ مخبراً عن أهوال يوم القيامة، وأوّل ذلك (نفخة الفزع)، ثم يعقبها (نفخة الصعق) حين يصعق من في السماوات والأرض إلّا من شاء الله، ثم بعدها (نفخة القيام لرب العالمين)، وقد أكدّها ها هنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يُخالَف ولا يُمانَع، ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد، فهي إذن النفخة الأخيرة، والظاهر ما قلناه، ولهذا قال ها هنا:

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي فمدّت مدّ الأديم، وتبدّلت الأرض غير الأرض: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي قامت القيامة». (مختصر ابن كثير ٣/٥٤٣).

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] «يقول تبارك وتعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذه النفخة هي الثانية وهي (نفخة الصعق) وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أوّلاً، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ويقول:﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، ويقول ثلاث مرات، ثم يجيب بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ٱلْيَوْمَ﴾ أنا الذي كنت وحدي، وقد قهرت كل شيء، وحكمت بالفناء على كل شيء. ثم يجيء أول من يجيء إسرافيل، ويأمره بأن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة (نفخة البعث). قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] أي أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة». (مختصر ابن كثير ٣/٢٢٩).

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ

ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] «يخبر الله ﷻ عن هول يوم نفخة الفزع في الصور... ثم بعد ذلك (نفخة الصعق) وهو الموت، ثم بعد ذلك (نفخة القيام لرب العالمين) وهو النشور من القبور لجميع الخلائق، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره...». (مختصر ابن كثير ٢/٦٨٤).

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] «هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة (البعث والنشور) للقيام من الأجداث والقبور، ولهذا قال ﷻ: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والنسلان هو المشي السريع». (مختصر ابن كثير ٣/١٦٥).

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٧ ـ ١٨]، ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣] «عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن إسرافيل قد التقم الصور، وحنى جبهته متى يؤمر فينفخ... وقال أعرابي: يا رسول الله ما الصور؟ قال: قرن ينفخ فيه». (مختصر ابن كثير ١/٥٩٠).

«﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ٩٩ ـ ١٠٠]، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وثمة منظومتان من المقاطع والآيات تنطويان على بعدهما

الصوتي، تتحدث أولاهما عما سيلاقيه الفجرة الكفرة، والطواغيت من عذاب وهم يتمرغون في نار جهنم ورمادها... وتحكي الأخرى عما سيلاقيه الأبرار جزاء جهدهم المكافح في الحياة الدنيا من أمن وسلام ونعيم...

في المنظومة الأولى يحدثنا كتاب الله عن يوم التناد: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣]. ويوم التناد هو يوم القيامة وسمي بذلك لما جاء في حديث الصور أن الأرض إذا زلزلت وانشقت... وماجت وارتجّت، فنظر الناس إلى ذلك فذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضاً... وقيل سُمِّي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّاۖ قَالُوا۟ نَعَمْۚ﴾ [الأعراف: ٤٤] ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف». (مختصر ابن كثير ٢٤٣/٣).

ويجيء الكفرة يوم الحساب ظانين أن بمقدورهم إخفاء جانب من مواقفهم السيئة عن رقابة الله ﷻ، فإذا بهم يجدون أنفسهم وجهاً لوجه أمام كتاب سيرتهم الذاتية الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] «أي يستحضر جميع أعمالكم من غير

زيادة ولا نقص، كقوله جل جلاله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] أي إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم... فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً». (مختصر ابن كثير ٣/٣١٢ ـ ٣١٣).

ليس هذا فحسب، بل يختم في ذلك اليوم على أفواههم لتركِ الجوارح تحكي ما اقترفوه صغيراً كان أم كبيراً: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠ ـ ٢٢].

حتى إذا وُضعوا في نار جهنم مزرقّي العيون من الهول، راحوا يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤]: «أي لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد لأن الدنيا كلها، وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وساعاتها كأنها يوم واحد، وكان غرضهم درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة. ولهذا قال الله

تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]... وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٣] ولو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرّفتم فأسأتم التصرّف». (مختصر ابن كثير ٤٩٣/٢).

هنالك ذلك الحوار المؤثر بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ورجال الأعراف، وهو يعرض بالأداء القرآني المعجز حال الطرفين: ﴿... وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣ ـ ٤٥].

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٦ ـ ٤٧]، ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟﴾ أي يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟

بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨ ـ ٥١] «... ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول له: قد احترقتُ فأفضْ عليَّ من الماء، فيقال لهم أجيبوهم، فيقولون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يعني طعام الجنة وشرابها». (مختصر ابن كثير ٢/٢٣).

وهم يتقدمون إلى جهنم فماذا هم واجدون؟ **التغيّظ، والشهيق، والزفير، والفوران...** وكلها أصوات مهولة، مرعبة، تأخذ بالحلاقيم والخناق، وتصمّ الأسماع: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]، ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٢] «والزفير خروج أنفاسهم والشهيق ولوج أنفاسهم... عن ابن مسعود: إذا بقي من يخلد في النار جُعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره!!». (مختصر ابن كثير ٢/٥٢٣).

«وإذا رأتهم ـ أي جهنم ـ من مكان بعيد، يعني في مقام الحشر، من مسيرة مئة عام، ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ أي حنقاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ [الملك: ٧ ـ ٨] أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله». (مختصر ابن كثير ٢/٦٢٦).

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ۝١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٣ ـ ١٤] «مثل الزجّ في الرمح أي من ضيقه. وسئل رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾ قال: (والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون

في النار كما يستكره الوتد في الحائط). وقوله ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ يعني مكتفين ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة... والثبور هو الهلاك والويل والخسار والدمار». (مختصر ابن كثير ٢/٦٢٦).

أما المؤمنون الذين التزموا الصراط في الحياة الدنيا، فينادون: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥] «أي الجنة سميت بذلك لارتفاعها ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي على القيام بالأفعال الجليلة: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]...». (مختصر ابن كثير ٢/٦٤٢).

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] «أي هذه الجنّات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له كما قد يوجد في الدنيا. وقوله ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥ ـ ٢٦]...». (مختصر ابن كثير ٢/٤٥٩).

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] «أي لا يعكر سعادتهم وصَفْوَهم حتى سماع حريق الأجساد في جهنم». (مختصر ابن كثير ٢/٥٢٣).

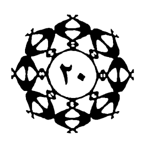
﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج:

٢٤]: «فهُدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥] لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبَّخون به ويقرَّعون به يقال لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]. وقوله ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي إلى المكان الذي يحمدون عليه ربهم على ما أحسن إليهم، وأنعم به وأسداه إليهم». (مختصر ابن كثير ٥٣٧/٢).

وشتّان بين حالتي الجنة وجهنم... بين السلام والحرب... بين الطيّب من القول وبين شهيق النار وزفيرها وتميُّزها وتغيُّظها... بين السعادة الأبدية والشقاء المقيم...

ألا يكفي هذا كله لإيصال الصوت الإلهي إلى عقل الإنسان وسمعه وبصره ووجدانه، لعلّه يكفُّ ـ ولو قليلاً ـ عن إنشاب أظفاره ومخالبه وأسنانه في تراب الأرض، وعفونتها، وقذارتها... ويرتفع ـ ولو قليلاً ـ إلى سماوات الأمن، والرضا، والتوحّد، والسعادة، والفرح، والسلام؟!





من هم العلميون؟!

تتردد في كتاب الله أنساق من المفردات القرآنية، التي تؤكد على ضرورة اعتمادها في البحث والنقاش والدعوة والتعامل مع الظواهر والموجودات والخبرات والأشياء... من مثل: العلم، الفكر، العقل، البرهان، الحق، الهدى، العدل، الحكمة، الميزان، الصراط، الموعظة، الحجة الحسنة، الجدل بالتي هي أحسن، اليقين، اعتماد الحواس من سمع وبصر في تأكيد الخبرة أو نفيها، القسط، السلطان، الجد، الاستقامة...

وأنساق مضادة يشن عليها القرآن حملته الجازمة لكي يستأصلها من ميادين البحث والنقاش، والدعوة والتعامل مع الظواهر والموجودات والخبرات والأشياء من مثل: الظن، الهوى، الزعم، الإفك، الكذب، الافتراء، الأساطير، الأسماء، الاعوجاج، الهزل، الضلال، السحر، الكهانة...

تتردد هذه الأنساق في كتاب الله من بدئه حتى منتهاه، فيما يؤكد منهجية القرآن العلمية ـ إذا صحّ التّعبير ـ للوصول إلى النتائج الدقيقة في مجالات البحث والدعوة والمناظرة... وفيما

يضع كل المذاهب الوضعية ـ مهما ادّعت مِن أخذها بالمنهج العلمي ـ على حافات اليقين، ويقودها إلى الانحراف والضلال.

فمن هم العلميون إذن في هذا العالم؟

بحث موجز كهذا لا يتسع لإيراد الشواهد كافة حول الموضوع، فلا بدّ إذن من الاختصار في استدعاء نماذج منها، وإحالة القارئ إلى العدد الذي أورده كتاب الله عن كل منها...

المفردات المنهجية

العلم (بتصريفاته المختلفة): ٨٢٠ مرة

البرهان: ٨

الفكر (بتصريفاته المختلفة): ١٨

الفقه (بتصريفاته المختلفة): ٢٠

العقل (بتصريفاته المختلفة): ٤٩

الهدى (بتصريفاته المختلفة): ٣١٠

الحكمة: ٢٠

الموعظة (بتصريفاتها المختلفة): ٢٥

الحجة: ١٨

الجدل: ٢٧

اليقين: ٢٧

الحواس (السمع والبصر بتصريفاتهما المختلفة): ٣٣٨

الحق: ٢٣٠

العدل: ٣٠

الميزان: ٢٣

القسط: ٢٥

الصراط: ٤٥

السلطان: ٣٦

الاستقامة: ١٠

المبين (بتصريفاته المختلفة): ١٣٠

البينات: ١٢٦

المفردات اللامنهجية

الظن (بتصريفاته المختلفة): ٥٥ مرة

الهوى: ٣٨

الزعم: ١٧

الكذب: ٢٩١

الافتراء: ٦٢

الأساطير: ٩

الأسماء: ٩

الاعوجاج: ٨

الهزل: ١

الضلال: ١٩٦

السحر: ٦١

الكهانة: ٢

الأقاويل: ١

الإفك: ٣٠

الهزؤ: ٣٤

الخرص: ٥

الكيد: ٣٥

المكر: ٤٣

الباطل: ٣٦

الأماني: ١

إن القرآن عبر هذه الأنساق المتضادة من دلالة الكلمات يقدّم منظوراً معاكساً تماماً للمنظور الوضعي العلماني، الذي يعتبر الدين ظنّاً والعلم البشري هو اليقين. ها هنا في كتاب الله تنعكس الآية في سيل متواصل من الكلمات والتعابير والآيات والمقاطع التي تؤكد، من زوايا عديدة، أن اليقين المطلق هو ذلك القادم من السماء... من الله ﷻ الذي يعلم من خلق والذي هو ـ جلّ في علاه ـ بكل شيء خبير. وأن ما عداه لا يعدو في معظم الأحيان أن يكون ظنوناً وتحزّبات ومصالح وأهواءً لا تقوم على برهان قاطع، ولا تتبني على علم شامل محيط.

إن القرآن بتأكيده على العلم الذي يرد بتصريفاته المختلفة، كما رأينا، في أكثر من ثمانمئة آية... فما الذي يدل عليه هذا إن لم يدلّ على أن هذه الأمة التي أُريد لها أن تمسك بزمام الأمور

في العالم، وأن تكون شاهدة على البشرية في مسيرها ومصيرها، لن يتحقق لها ذلك إلا باعتماد العلم واتخاذه سبيلاً إلى تنفيذ هذه الآية الكريمة ذات الدلالة القاطعة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]...

فمن هم العلميون إذن في هذا العالم: نحن أم هم؟! أولئك الذين تساقطت نظرياتهم ومبادئهم ودعاواهم، وراح بعضها يضرب بعضاً ويزيحه من الطريق، لكي ما يلبث أن يتلقى هو الآخر الضربة من خصم جديد سيُطاح به هو الآخر، يقيناً، طال الوقت أم قصر... لماذا؟ لأن كل هذه الدعاوى والمذهبيات لا تعدو أن تكون ظنوناً وأهواءً وتحزبات ومصالح وميولاً، يستعبد بها المشرّعون والمنظّرون قطعان الناس الضالة التي تبحث عن طريق الخلاص دون جدوى.

إن ثلاثية القرآن في بناء العالم، والقائمة على (تسخير) هذا العالم لأمة قد (استُخلفت) عليه لكي تبنيه وتعمِّره وفق القاعدة القرآنية: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] لن تتحقق إلّا باعتماد العلم وسيلة لاكتشاف وتوظيف هذه الطاقات المسخرة لغرض تمكين الأمة المستخلفة من أخذ موقعها المتقدم في العالم الذي استُخلفت عليه، لكي تمضي به إلى الأمام بكل ما تعنيه مفردة التحضّر من معانٍ... وإلا فإن هذه القيادة ستؤول لليد التي تعرف كيف تمسك بمقدّرات العالم، حتى وإن كانت يداً فاجرة كافرة لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وتسعى لأن تكون هي

الأعلى من خلال إفسادها في الأرض: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

إن الفضاء الذي يتحدث عنه القرآن الكريم بخصوص العلم واسع عريض، وهو بمفرداته كافة يؤول إلى محوره الأساس في أن تكون الأمة العلمية في هذا العالم بكل ما تعنيه الكلمة من معنىً، ويوم أن أخذنا بهذا المبدأ صرنا سادة العالم لعدة قرون، ولم نسمح لأيدي الخصوم الفجرة أن تمتدَّ إلينا، ولكننا بمجرد أن فككنا الارتباط بالخطاب القرآني، وارتخت أيدينا، وتكاسلت عقولنا، رجعنا إلى الوراء، وسمحنا للخصم الكافر أن يمدَّ أيديه إلينا فيستنزف ثرواتنا، ويستعبدنا، ويسومنا سوء العذاب... حيث لا تزال الأمة تعاني من ويلاته حتى اللحظات الراهنة، وإلى أن يشاء الله وتثوب هذه الأمة إلى ما أراده كتاب الله منها، وهو أن تتخذ العلم منهاجاً لها في الحياة.

ولقد تحدثتُ عن هذه المسألة بما فيه الكفاية في مؤلفاتي التالية: تهافت العلمانية، التفسير الإسلامي للتاريخ، حول أصول تشكيل العقل المسلم، مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، مدخل إلى الحضارة الإسلامية، محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية، فلا مبرر لإعادة القول فيها...



والآن... ماذا بخصوص المفردات القرآنية، التي تساهم في

بناء المنهج العلمي المُحكم الذي أريد لهذه الأمة أن تتحقق به، وأن تمضي على هديه في مسيرها ومصيرها على السواء؟!

إن القرآن الكريم يقدّم ثلاثية في غاية الأهمية بهذا الخصوص... ثلاثية يقوم ضلعها الأول على (البرهان)، وضلعها الثاني على (الحجة)، وضلعها الثالث على (الجدل)... فبهذه الفاعليات الثلاث يحق الحق ويبطل الباطل، ويتم الوصول إلى النتائج (العلمية) (وأؤكد على الكلمة) الصحيحة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. ولنقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [القصص: ٧٥]، ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل

عمران: ٦٦]، ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠].

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: ٣٢]، ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]، ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

❁ ❁ ❁

ويمضي القرآن في بناء المنهج العلمي الذي يدعو المؤمنين إلى اتباعه في تعاملهم مع الظواهر والخلائق والأشياء، فيؤكد في عشرات المواضع على اعتماد (السلطان)، أي الدليل العلمي القاطع في أية دعوة يقدّمونها للآخر أو يتلقّونها منه: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١]، ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨]، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ

هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ [المؤمنون: ٤٥]، ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ١٥٦ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦ ـ ١٥٧]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: ٥٦]، ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾ [آل عمران: ١٥١]، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ٩١]، ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الحج: ٧١].

❁ ❁ ❁

ويدعو القرآن إلى اعتماد (الحكمة) و(الموعظة الحسنة)، وهما أسلوبان يبتغيان الوصول إلى (الحق)، دونما أيِّ قدر من السلوك الملتوي الذي يستفز الطرف الآخر ويدفعه إلى التشبث بموقفه الخاطئ، وهي دعوة تنطوي على رؤية علمية حساسة في تعاملها مع الظواهر والموجودات والأشياء: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [الإسراء: ٣٩]، ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ [لقمان: ١٢]، ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]،

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

❁ ❁ ❁

ويمضي القرآن خطوات أخرى في رسم المنهج العلمي الذي يدعو إليه، فيؤكد على مفاهيم (الاستقامة) و(اليقين)، التي تقوم على (البيّنة) والدليل القاطع... وهي ـ إذا أردنا الحق ـ تقف قبالة كل النظم والمذاهب الوضعية (الملتوية)، والقائمة على (الشك) و(الاختبار) وتجارب (الخطأ والصواب)، ولا تستند إلى الدليل الحاسم، ولهذا ذهبت كلها مغادرة مسرح التاريخ، تاركةً الساحة للعابثين بها من الطواغيت والأرباب، الذين يسعَوْن إلى تعبيد الناس لأنفسهم عن طريق إغوائهم بمبادئهم ودعاواهم... وإلّا فأيُّ مذهب وضعي عبر التاريخ البشري كلّه، قُدّر له الدوام؟

ها نحن في القرن الفائت نشهد تساقط جلّ النظم والمذاهب الوضعية: الماركسية، اللينينية، الستالينية، الاشتراكيات الطوباوية، فلسفات تفسير التاريخ، الوجودية التي أعلن مؤسسها نفسه (جان

بول سارتر) أمام عشيقته (سيمون دي بوفوار) تبرؤه منها ومن دستورها ـ كتابه المعروف (الوجود والعدم) ـ وأنه يؤمن بالله الذي تجلّت حكمته في إبداعية الكون والخليقة والإنسان... القوميات الشوفينية النازية والفاشية... وها هي ذي الرأسمالية تصل إلى الطرق المسدودة وتبحث جاهدة عن البديل...

يمضي القرآن في تأكيده على (الاستقامة) و(اليقين) و(البيّنة)، التي تتيح لخطابه أن يمضي إلى يوم القيامة قديراً على الانبعاث مرة ومرتين وثلاثين مرّة... ما دام يستند إلى الثوابت وليس إلى المتغيرات والنسبيات المبنية على الظنون والمصالح والأهواء... ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]، ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن: ١٦]، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٧ ـ ٢٨]، ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾ [هود: ١١٢]، ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ [الشورى: ١٥]، ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ

وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧]، ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [النساء: ١٥٧]، ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٧]، ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤]، ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ١٧٦]، ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ

بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥]، ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤]، ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩]، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦]، ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ [الصافات: ١١٧].

❁ ❁ ❁

ولكن القرآن لا يقف عند هذا الحدّ في رسم ثوابت المنهج العلمي الذي يدعو إليه في التعامل مع الظواهر والخبرات

والأشياء، وإنما يمضي مصعّداً إلى الآفاق البعيدة التي تنطوي على الكون والعالم، والتي خُلقت من أجلها السماوات والأرض... يمضي مؤكداً قيمتين كبيرتين لا تستقيم بدونهما الحياة، ولا تمضي السنن الإلهية في العالم والكون إلى أهدافها المرتجاة: الحق، والعدل...

نقارن هذا بكل المذاهب الوضعية التي انحرف بها الميزان عن الحق، وطاشت بها كفّته عن العدل... فما لبثت أن وجدت نفسها تدخل سراديب الباطل والانحراف والضلال، فتمارس تمييزاً قاسياً بين فرد وفرد، وبين طبقة وطبقة، وبين لون ولون، وبين أمة وأمة، وتصطرع مع سنن الله وقوانينه العاملة في التاريخ، فتجد نفسها في نهاية الأمر عاجزة عن تحقيق عشر معشار ما دعت إليه، وما تلبث أن تخرج من التاريخ خاسئة مندحرة... مُخلية الساحة لدعاوى أخرى تتشكل في مواجهة قيم الحق والعدل... فيما يقودها إلى السقوط هي الأخرى.

فما الذي يقوله القرآن، ويؤكده، بخصوص هاتين القيمتين؟ اللتين تسرّبتا في شرايين التعاليم الدينية وصاغتا معطياتها، بقدر مدهش من التوحّد، بحيث يغدو المعادل الموضوعي لكل دين أصيل قادم من السماء، هو الدعوة إلى الحق والعدل، وبناء الحياة البشرية وفق منطقها الذي لا يحابي ولا يداجي: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾

[البقرة: ١١٩]، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]، ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣]، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟

ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النحل: ٧٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

❁ ❁ ❁

ومع قيمتي الحق والعدل، دعوة صريحة إلى إقامة (الميزان) والتحقق (بالقسط)، بدءاً من مطالبنا اليومية العابرة... وانتهاء ببنية العالم والكون اللذين أقيما على القسط والميزان. هاتان المفردتان اللتان تنطويان على بعد منهجي في التعامل مع الظواهر والموجودات والخبرات والأشياء... فتزيدان القيم المنهجية في كتاب الله أصالةً وغنًى وعطاءً... وتقودان إلى أقصى درجات الموضوعية في التعامل مع البحوث والأفكار...

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ

﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦]، ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]، ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]، ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨ ـ ٩]، ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤]، ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٥]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ ـ ١٠٣]، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩].

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ

فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧].

❁ ❁ ❁

إن هذه المنهجية القرآنية تصبّ في نهاية الأمر في دعوة البشرية إلى التزام (الصراط)، وأن تقطع شوط حياتها الدنيا وهي على (هدى) من الطريق الذي تسلكه... فإذا ما تحقق لها ذلك، وهو ما سعت الأديان السماوية كافة إلى التحقق به، فإنها ستحيا الحياة الآمنة، السعيدة المطمئنة، المتوحدة، التي يأتيها رزقها رغداً من كل مكان... وتتجاوز حياة الضنك والضيق والتشتت والازدواج والشقاء والنكد والاكتئاب، وصولاً إلى الهروب إلى الخمر والمغيِّبات... بل إلى ما هو أدهى من ذلك وأمر: الانتحار الذي يحكم على حياة الإنسان بالإعدام... فها هي ذي آخر الإحصائيات المعلنة تشير إلى أن عشرة بالمئة من الأمريكيين يعانون من الاكتئاب ويلجأ بعضهم إلى الانتحار، وإلى أن اليابان خصصت من ميزانيتها لعام (٢٠١١م) ثلاثين مليار دولار لملاحقة حالات الاكتئاب والانتحار في ديارها!!

إن (الصراط) و(الهدى)، اللذين تؤول إليهما المعطيات المنهجية آنفة الذكر، ينعكسان بالضرورة على كل صيغ تعامل

الإنسان مع الخبرات والموجودات والظواهر والأشياء، لأنه في هذه الحالة سيتحرك في ضوء مصباحين كبيرين، يقودانه في نهاية الأمر إلى النتائج الصحيحة، ويبعدانه عن كل المطبات والالتواءات، والاعوجاج، الذي قاد المذهبيات الوضعية التي لم تستهد بهذين المصباحين، إلى البوار...

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٨٦]، ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٣ ـ ٧٤]، ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١]، ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ

أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]، ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٣]، ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠]، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: ٢٤]، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠]، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

❁ ❁ ❁

هذا ـ بإيجاز شديد ـ عن دعوة القرآن المؤكدة إلى تكوين الأمة التي تلتزم المنهج الصارم في تعاملها مع الظواهر والخبرات والأشياء، أي أن تكون ـ بالتعبير المعاصر ـ الأمة العلمية... وأشدّد على الكلمة ردّاً على أولئك الأدعياء الذين يدّعون العلمية، والمنهجية، وما هم منهما بشيء...

ولكن القرآن الكريم ـ كعادته دائماً ـ لا يقف عند الجانب الأحادي من الصورة التي يعرضها للناس، ولكنه يدير كاميرته على الوجه الآخر من أجل أن يقدّمها للناس بالوضوح المطلوب... فها هو ذا كتاب الله، يشن حملته المتواصلة، من بدئه حتى منتهاه... على كل الأساليب المضادة، والطرق المعوجّة، والمناهج الخاطئة... والأنشطة اللاعلمية التي تسربت كخلايا السرطان، في جسد المجتمعات البشرية الضالة وقادتها إلى البوار...

ولقد مرّت بنا إحصائية هذا الجانب الآخر من الظاهرة في كتاب الله، حيث ترد هذه الهجمات القرآنية على الممارسات اللامنهجية واللاعلمية في عشرات المواقع... هجمات على: الظنون والأهواء والمزاعم والأكاذيب والافتراء والأساطير والاعوجاج والهزل والضلال والسحر والكهانة والأقاويل والإفك والهزء والخرص والكيد والمكر والباطل والأماني، التي لا رصيد لها من عقل أو علم أو منهج.

فلنتابع ـ ها هنا أيضاً ـ بعضاً من شواهد هذه الهجمات التي تنضفر في نهاية الأمر عند كلمة (لا) لكل ممارسة تخرج

عن الأسلوب العلمي، والمنهج الصارم في التعامل مع الخبرات والموجودات والظواهر والأشياء... والتي تضع الأمة المسلمة، وقد وضعتها فعلاً عبر عصور تألّقها في سقف العالم وقمة الإبداع الحضاري، الذي قدّم للعالم كله الكثير الكثير من الكشوف والمعطيات...

الظن:

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]، ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢]، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: ٧]، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥]، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ

﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء: ١٥٧]، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦]، ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: ٣٦]، ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

الهوى:

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧]، ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠]، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١]، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١٦]، ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠]، ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ [الروم: ٢٩]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ [الأنعام: ١١٩]، ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ [القمر: ٣].

الزعم:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ [الكهف: ٤٨]، ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ [الكهف: ٥٢]، ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]، ﴿تَّقَطَّعَ

بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ٦٠]، ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

الكذب:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٤]، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٢١]، ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦]، ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر: ٢٥]، ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠ ـ ٢١]، ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ [الزمر: ٥٩]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ [النمل: ٨٤]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٠]، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]، ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٦]، ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣]، ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً

رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]، ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [المطففين: ١٢]، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦]، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥]، ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠]، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

الافتراء:

﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: ٢١]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]، ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١]، ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]، ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤]، ﴿وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]،

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩]، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥]، ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]، ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

الأساطير:

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]، ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨]، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥].

الأسماء:

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [الأعراف: ٧١]، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

العوج:

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [آل عمران: ٩٩]، ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [الأعراف: ٤٥]، ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ﴾ [الأعراف: ٨٦]، ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [هود: ١٩]، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ [إبراهيم: ٣]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١].

الهزل:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١٣ ـ ١٤].

الضلال:

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ [يونس: ١٠٨]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤]، ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢]، ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١]، ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ

ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤]، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٨٨]، ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٩]، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦]، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠]، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ [الروم: ٥٣].

السحر:

﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨ ـ ٨٩]،

﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٦ ـ ٧٧]، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ﴾ [طه: ٧٣]، ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣]، ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٢ ـ ٣]، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ٨ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٨ ـ ٩].

الكهانة:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]،

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣].

الأقاويل:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

الإفك:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١١٨]، ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨ ـ ٩]، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: ٦٣]، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١١ ـ ١٢]، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦]، ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الصافات: ١٥١ ـ ١٥٢]، ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣]، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧ ـ ٨]، ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩ ـ ١٠].

الهزء:

﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]، ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١١]، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النحل: ٣٤]، ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء: ٦]، ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]، ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢]، ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠]، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]،

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ [المائدة: ٥٧]، ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ﴾ [المائدة: ٥٨]، ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [لقمان: ٦]، ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الجاثية: ٣٥].

الخرص:

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠ ـ ١١].

الكيد:

﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦]، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف: ٥]، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٩]، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]، ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]، ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر: ٢٥]، ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ

﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧]، ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]، ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤]، ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٦٠]، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور: ٤٦]، ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢]، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٣ ـ ٣٤].

المكر:

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣]، ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ [النحل: ٤٥]، ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٥]، ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢]، ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

[يوسف: ١٠٢]، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ [يونس: ٢١]، ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]، ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الرعد: ٣٣]، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

الباطل:

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨]، ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]، ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]، ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿ذَٰلِكَ

بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ﴾ [غافر: ٥]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢]، ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٢٤]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧]، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

الأماني:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٨ ـ ٧٩].

❁ ❁ ❁

فها نحن إذن إزاء سيّال متدفق من الكلمات والآيات والمقاطع القرآنية ذات الدلالة الصارمة في ضرورة اعتماد القيم والأساليب المنهجية في التعامل مع الظواهر والخبرات والموجودات، يقابله سيال آخر في رفض وإدانة كل صيغ

اللامنهجية في هذا التعامل... فكأن كتاب الله ﷻ يضع هذه الأمة في قلب المسألة العلمية، جاعلاً منها الأمة التي تستهدي بالعلم وطرائقه في بناء الحياة الإسلامية التي يريدها هذا الدين، قبالة كل الطرائق الوضعية الضالة المبنية على الظنون والمصالح والتحزبات والأهواء، والتي ساقت المجتمعات البشرية عقداً بعد عقد، وقرناً بعد قرن، إلى التعاسة والضياع، ثم ما لبثت أن خرجت من التاريخ، لأنها تشكلت في حالة اصطراع مع قوانين الحركة التاريخية، فآل بها الأمر إلى التحطم والسقوط.



مرةً ثانية، وثالثة، وعاشرة... من هم العلميون في هذا العالم؟... نحن... أم مدّعو العلمانية الذين طالما اتهموا المنتمين للمشروع الإسلامي بأنهم يتحركون على النقيض من مطالب العلم والمنهج؟

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣ ـ ٢٦]، ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ

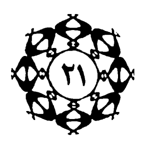
لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

وثمّة فارق كبير لا تطاله كل المقاييس بين علم الله وأهواء العبيد... بين اليقين والحق في مناهج الأنبياء، والظنون والتخمينات والميول والمصالح والأهواء في مناهج العبيد... بين الرؤية الشمولية والنظرة النسبية القاصرة... بين الحجة القوية والحجة المهزوزة... بين الجد والهزل... وبين الاستقامة والاعوجاج...

❁ ❁ ❁

وخلاصة الأمر في ضوء المعطيات السالفة أن الدين الحق هو العلم، والأمة التي تلتحم بمطالبه هي الأمة العلمية... وأن ما دون ذلك هو الهراء والإغواء الشيطاني والظلم الي ستُدمغ به الجموع الضالة يوم الحساب: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٢ ـ ١٤٤].





حول ثنائية الخطاب القرآني

[١]

المعطى القرآني في القضية الواحدة ليس حالة متفردة، وإنما هو أكثر من حالة، والتفسير الدقيق هو الذي يتابع الحالات جميعاً، ويضعها جنباً إلى جنب، ثم يحلل ويقدّم استنتاجاته... هو الذي يلاحق (الكاميرا) القرآنية وهي تتجوّل هنا وهناك لكي تقدّم لنا صوراً شتى (للحالة) أو الوضع الواحد.

مثلاً نقرأ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣] فنجد أن هناك آيات ومقاطع أخرى عن أن نجاة المؤمنين في الدنيا ليست قدراً نهائياً، بل ربما العكس، ونجد آيات عديدة تتحدث عن الموت والشهادة وإحدى الحسنيين، وآيات تذكّر الرسول ﷺ بأن الحصاد ليس شرطاً أن يجيء في الدنيا... وهكذا... مثلاً: الزلازل قد تضرب الأشرار فيكون لها معنى غيره وهي تضرب الأبرار...

لا يُفهم القرآن الكريم كما لو أنه يسلط ضوءه على الوقائع

والأشياء من زاوية واحدة، ولكن بأن نلاحظ كيف أنه يتابع الحالة في أوجهها المتعددة، والوجه في حالاته العديدة... إنه مرة أخرى - وإذا صحّ التّعبير - يدير الكاميرا لكي يلتقط الصورة في تحوّلاتها وأوضاعها المختلفة، التي قد تبدو للوهلة الأولى متناقضة، وحاشا للّه، ولكن بإعمال الرؤية الشمولية يتبيّن تناسقها وتكاملها.

مثلاً: التي تقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] والتي تقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٢] تقابلها الآية التي تقول: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وللتوصل إلى الحكم الأخير يجب أن نلاحظ مستويات ثلاثة:

١ - بالنسبة للّه ﷻ لا تفريق بين الرسل ولكن ذلك لا يمنع.

٢ - من تفضيل بعضهم على بعض. أما بالنسبة للإنسان.

٣ - فإن عليه ألّا يفرّق، وإلا وقع في خطيئة اليهود والنصارى، بينما المسلم يساوي بين الجميع.

إن العديد من الآيات والمقاطع القرآنية تتعامل مع مستويين وتتوجه إليهما بالخطاب في نفس الوقت، دون أن يتمخض عن ذلك أيٌّ تناقض أو تداخل أو التباس وحاشا لكتاب اللّه...

الخاص والعام

الآني والدائم

المرحلي والأبدي

التكتيكي والاستراتيجي

النسبي والمطلق

الطبيعي والميتافيزيقي

الفاني والخالد

التاريخي واللاتاريخي

الجغرافي والكوني

البيئي والعالمي

الجزئي والكلي

إن المفتاح قد يكمن في متابعة (أسباب النزول)، التي تحدّد الظرف المرحلي: الزمني أو المكاني أو التاريخي... الخ، الذي اقتضى تنزل التعاليم والتعقيبات القرآنية، ولكن هذه التعاليم أو الأحكام ما تلبث أن تتجاوز المرحلية المرتبطة بسبب النزول إلى المطلق الذي يسري على كل زمن ومكان.

والمفتاح قد يكمن ـ كذلك ـ في الآية التي تقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فهو يقدّم مطلق القوة الضرورية لكل زمان ومكان ـ على إطلاقهما ـ وفق

القدرات التسليحية والصناعية، على (رباط الخيل) الخاص بعصور معينة.

والشاهد ـ كذلك ـ قد يتمثل في الآيات العلمية، التي تتضمن معنى مرحلياً أو عاماً واضحاً يناسب مدارك العصر الذي نزل فيه القرآن، وتتضمن ـ في الوقت نفسه ـ كشفاً سيتولى الزمن بحكم قانون تراكم الخبرة، إعلان مصداقيته.

والشاهد قد يتمثل حرفياً بالآيتين الكريمتين اللتين تعلنان، بشكل ضمني، عن وجود الخط الثنائي هذا في القرآن الكريم على المستوى الزمني ـ التاريخي: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

وقد يتمثل الشاهد بصيغ ومفردات عديدة أخرى، بعضها ينصبّ على العالم الحسّي المنظور، وبعضها الآخر يمضي باتجاه الروح والغيب... بعضها يحكي عن الماضي، وبعضها يطلّ على المستقبل القريب والبعيد... بعضها يخاطب الجماعة الإسلامية الأولى، وبعضها كل جماعة مسلمة في كل زمن ومكان.

وقد يتمثل الشاهد في تعامل القرآن مع الأرباب، فبعضها وقتي (كالتماثيل والأصنام)، وبعضها دائم كالفراعنة والطواغيت... بعضها جامد، وبعضها حيوي متحرك...

هذا التقابل الذي قد تتوزعه الآيات ـ وهذه مسألة معروفة ـ ولكن قد تتضمنه في وقت واحد الآية الواحدة، أو المقطع القرآني

الواحد، وهذا هو وجه الإعجاز الذي يشير إلى المصدر الإلهي للعلم القرآني، ذلك العلم الذي يلمّ بكل صغيرة وكبيرة، والذي تلتقي في نسيجه في اللحظة الواحدة، ثنائيات شتى قد تبدو مستحيلة بالإحالة إلى البيئة أو المرحلة التي تنزّل فيها القرآن، وما تنطوي عليه من مستويات حضارية أو وعيية... ولكن المعضلة سرعان ما تتلاشى إذا تذكرنا أن الله ﷻ، العالم بكل شيء، والذي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، والذي: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] هو الذي يتوجه بالخطاب عبر رسالة ما أريد لها أن تكون دين عصر أو أمة، وإنما دين كل زمن وكل أمة على مدار الأماكن والأزمان.

ويجب أن نلاحظ أن هذه الثنائية لا علاقة لها البتة من قريب أو بعيد، بمحاولات الصوفية والباطنية والفِرَقية التي اعتمدت التأويل في أنشطتها التفسيرية، واستخدمت الرموز والدلالات التي تسند توجُّهاتها، وأرغمت الآيات على أن تقول، أحياناً، غير ما أرادت أن تقوله، وادّعت بأن لكتاب الله ظاهراً وباطناً، وأن أولهما للعامة والدهماء، وثانيهما للنخبة من أولي العلم واليقين!!

فتلك مسألة أخرى لا نريد أن نستنزف الطاقة في متابعتها ومناقشتها وتبيان عناصر الخطأ والتضليل في معطياتها. ويجب التأكيد ـ كذلك ـ على أن هذا المقال ليس محاولة في التفسير، لا من قريب ولا من بعيد، وحاشا لله... وانما هو مجرد ملاحظة قد يفنّدها ذوو العلم والتخصص، وقد يؤكّدونها. وهي في كل

الأحوال محاولة لفتح نافذة أخرى في التعامل مع كتاب الله، وفي متابعة أوجه إعجازه التي لا تنقضي على كثرة الردّ!!

والذي يميل بالمرء إلى الاقتناع بوجود ثنائية الخطاب في كتاب الله جملة أمور:

١ ـ أنها لا تشمل سوى إشارات محددة، ولا تمضي لكي تغطي المعطى القرآني كلّه...

٢ ـ أن هناك شواهد واضحة تماماً في تضمُّنها البعدين معاً، كما رأينا وسنرى.

٣ ـ أن القرآن نفسه يعلن في أكثر من موضع عن أن مدارك العصر الذي تنزّل فيه، على الأقل بالنسبة لفئات مترددة شاكة، لم تكن كافية لإدراكه، وأنه سيأتي الزمن الذي ستتكشف فيه أبعاد جديدة قد ترغمهم على قبول الحقيقة القرآنية والتسليم بها.

٤ ـ أن محاولات معاصرة كثيرة في سياق التفسير العلمي للقرآن وعلى رأسها محاولة موريس بوكاي في كتابه القيم (التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة) تجيء مصداقاً لهذا كلّه...



[٢]

إننا ـ إذن ـ بصدد نمطين أو نسقين من الآيات والمقاطع القرآنية التي تتعامل مع الزمن والمكان... نمط أو نسق يعتمد المعايير اليومية الآنية، وآخر يكسر الحواجز باتجاه كل زمن

ومكان، وبالمعايير التي تتجاوز النسبي الموقوت إلى الفضاء المفتوح على مداه.

والشواهد القرآنية كثيرة، ومنبثة في كتاب الله من بدئه حتى منتهاه، ولذا سأقتصر في هذا البحث الموجز على عدد منها فحسب، وأترك للقراء الذين يملكون الذائقة الحساسة التي تعرف كيف تتعامل مع كلمات الله المدهشة، أن يكتشفوا بأنفسهم المزيد...

في الآية الخاصة التي تخاطب المسلمين، أو تأمرهم بعبارة أدّق بإعداد القوة في مجابهة خصوم الأمة، نلحظ مستويين للخطاب:

أحدهما عام يعنى بمطلق القوة، سواء كانت خنجراً أم سيفاً أم رمحاً... أم رصاصة أم قنبلة أم صاروخاً... أم عابراً للقارات... القوة على إطلاقها بغضّ النظر عن الزمن الذي تتشكل فيه.

وثانيهما خاص يعنى بالقوة الأساسية لعصر التنزيل، وربما للعصور التي تليه: سلاح الفرسان الذي ظلّ يعمل عمله حتى الحرب العالمية الثانية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فلو أن الأمة الإسلامية في عصورها الأخيرة، انتبهت إلى

هذا الخطاب ولاحقت، بل سبقت القوى الغربية في ابتكار السلاح الأكثر قدرة على الضرب، لما كان هذا الذي كان من تفوّقهم علينا... وازدياد هذا التفوّق بمعدلات المتواليات الهندسية، وإمساكهم بنا ـ بقوة السلاح ـ من رقابنا، وإرهابنا، وتحكّمهم في مصائرنا...

والمدهش أن كتاب الله يقطع ألسنة القائلين بدعوة القرآن إلى الإرهاب، مما تلوكه ألسنة الخصوم وإعلامهم صباح مساء... في الآية التالية تماماً لآية الإعداد: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]... فالقاعدة الإسلامية هي الجنوح للسلم، ولكن وبسبب من نزعة الإسلام الواقعية فإنه يأخذ بكل مسألة أو ظاهرة بأطرافها كافة... ولا بدّ في هذه الحالة من إعداد القوة على إطلاقها لمجابهة الخصوم الذين يكيدون لهذا الدين.

إن القرآن يقودنا دائماً عبر رحلة تخرج بنا من التاريخي إلى الحضاري... من الزمني الموقوت إلى الفضاء المفتوح على سائر الفعاليات الحضارية، التي تمكّن الأمة من حماية نفسها ومجابهة خصومها، بكل ما يتمخض عنه العقل البشري من قدرات على الكشف والابتكار... وتلك هي الظاهرة التي جعلت الغربيين الفجرة يتفوقون علينا بها... وقد أراد كتاب الله لنا أن نسبقهم ونقطع عليهم الطريق... ولكن!!

❁ ❁ ❁



[٣]

في الآيات الخاصة (بالميزان)، نلحظ الخطاب الثنائي نفسه... الموازين التي نزن بها حاجياتنا اليومية، وتلك التي قامت عليها سنن الكون والحياة والوجود على إطلاقها...

دعوة مؤكدة لأن نزن ما يباع ويشترى من مأكل وطعام بما لا يُلحق غبناً بالبائعين والمشترين على السواء... يقابلها تأكيد على الموازين الكبرى التي أريد للكون أن تنضبط حركته بها فلا يميل ولا يجور... إنه العدل الإلهي المركوز في بنية الكون، والذي أريد للبشرية أن تلتزم به، وأن تحكم بالقسط، فلا يطغى بها الميزان...

ما أجمل الحياة وأسعدها، عندما يتحقق هذا الوفاق المرتجى في الحالتين: موازين الأشياء والموازين الكونية... حيث لا غش... ولا ابتزاز... ولا سرقة... ولا تدليس... ولا ظلم... ولا طغيان... هذا ما سعت الأديان السماوية إلى تنفيذه في العالم... وجاء خاتمها الإسلام لكي يضع بصماته النهائية عليه... ولكن ماذا نقول للكفرة والعلمانيين، الذي يسعون إلى فك الارتباط بين الدين وبين قدرته على إدارة الحياة بقوة السياسة وآليات الدولة؟

إنها، إذا أردنا اختصار المحاولة بأقل الكلمات، خيانة للإنسان والبشرية، ومحاولة لابتزازهما والانحراف بهما عن منطق العدل، ومطالب الميزان!!

في الخطاب الأول يتعامل القرآن الكريم مع عالم الأشياء وفي الثاني مع القيم الكبرى... والأمر سواء، ما دام أن الهدف في الحالتين هو تحقيق العدل في هذه الحياة... وحماية الإنسان من كل صنوف الغدر والابتزاز، سواء في أموره اليومية المعيشية، أو في نشاطه السياسي والاجتماعي العام. ولنقرأ:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦].

ورغم أن هذا المقطع يُعنى بشؤون الناس اليومية في البيع والشراء، وضرورة الوزن لهم بالحق والعدل... إلّا أنه ما يلبث أن ينقل البائعين، بل يتهددهم بأنهم مبعوثون بغشّهم وخيانتهم ليوم الحساب العظيم، الذي سيقوم فيه الناس لرب العالمين... جلّ في علاه...

إنها نقلة مؤثرة من اليومي إلى الأبدي... ومن الراهن إلى المطلق... ومن الجزئي إلى الكلي... ومن التاريخ إلى الزمن المفتوح... كل ذلك من أجل أن ينبّه الناس إلى قيمة العدل في موازينهم، وتجاوز كل ما من شأنه أن يمسّها بسوء...

ولكن القرآن لا يقف عند هذا الحدّ، بل يمضي مصعّداً من أجل تأكيد «الميزان» الذي خلقت به وله السماوات والأرض: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]... الميزان في

مستوياته العليا: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والاستراتيجية من أجل جعل الحياة البشرية، التي افترسها اللصوص الكبار ـ باسم رفض تدخل الدين في السياسة ـ جديرةً حقاً بأن تعاش!!

❁ ❁ ❁

[٤]

في الآيات والمقاطع القرآنية الخاصة بالزمن نلحظ ثنائية الخطاب القرآني نفسه ما بين الزمن الأرضي التافه، المنصرم، المحدود... وبين الزمن الكوني المنفتح على مداه... ما بين الثواني والدقائق والساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنين المأسورة بالثلاثمئة والستين يوماً، وبين الزمن الكوزمولوجي الذي يقاس بالسنين الضوئية ذات المديات التي تُعجز العقل عن ملاحقتها وتصوّرها!!

في الأولى نقرأ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦] فنجد أنفسنا إزاء معيار زمني قصير، محدود، أراده الله ﷻ كذلك، لكي يتلاءم مع حياتنا الأرضية القصيرة المحدودة... إنه معيار مناسب لحجمنا تماماً في هذه الحياة الدنيا... لهمومنا ومطامحنا ولهاثنا المحموم وراء مغريات الحياة...

وحدته الزمنية هي السنة المكوّنة من اثني عشر شهراً، والتي تمضي إلى غاياتها المنصرمة بعد ستين أو سبعين دورة زمنية...

ومع ذلك يتكالب الطواغيت والفراعنة والمتألهون في الأرض من أجل الإمساك بهذه السنوات كي لا تتفلت من بين أيديهم... فماذا لو مُدّ في الأعمار إلى ألف سنة أو ألفين... ماذا كانوا سيفعلون؟ تلك هي حكمة الله سبحانه ومشيئته العليا... أن يحجّم الأعمار وفق هذه النسبة التافهة المحدودة، كي لا تتحول الحياة البشرية إلى غابة موحشة يفترس فيها القوي الضعيف... وينزو السفلة حتى على البهائم والأطفال!!

سريعة منصرمة، حتى لتبدو للناظرين إليها يوم الحساب يوماً أو بعض يوم، أو ساعة من زمن، أو حفل تعارف ما يلبث المنفضون عنه أن ينسوا حتى أسماء وملامح الوجوه التي تعرّفوا عليها: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]، ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٣ ـ ١٠٤].

في الثانية نقرأ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

بل إن اليوم الواحد ليغدو في العرض القرآني (١٨,٢٥٠,٠٠٠) يوماً أرضياً: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ١ ـ ٧].

والقرآن يحدثنا في أكثر من موضع عن الأيام الكونية، التي تمّ خلالها خلق السماوات والأرض... إنها أيام قلائل لا تتجاوز الستة... ولكنْ أيَّةُ أيام هذه التي تم فيها بناء السماوات وتهيئة الأرض لاستقبال الإنسان، الذي كُلِّف بالخلافة في هذا العالم... إنها بالتأكيد أيام كونية لا تقاس مطلقاً بأيامنا الأرضية السريعة، العابرة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤، يونس: ٣]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٧]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة: ٤]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق: ٣٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد: ٤].

ويجيء علماء الفيزياء والكوزمولوجي الكبار في القرن العشرين، وعلى رأسهم آينشتاين لكي يؤكد في نظرية النسبية

حقيقة الفارق الهائل بين الزمن الأرضي والزمن الكوني، ومع تأكيد هذا الفارق، كشف لحقائق أخرى لا تقل أهمية تجيء مطابقة تماماً لما سبق وأن أورده كتاب الله، من مثل حقيقة الانفجار الكوني العظيم (Big Bang) الذي يعكس مصداقية الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. ومن مثل حقيقة التمدّد الكوني، والكون المتسع، والمنحنيات الكونية التي تعكس مصداقية الآية: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

❁ ❁ ❁

[٥]

والقرآن الكريم يقدم موقفه من النصارى بوجهيه معاً... وذلك هو العدل الإلهي في التعامل مع (الآخر)... ألّا يكتفي بالتقاط الصورة من جانب واحد، وانما هو يدير (الكاميرا) على الوجه الآخر، لكي يعطي تقييمه الموضوعي العادل... وليس كما يتصوّر السذّج والخبثاء من أن القرآن يناقض نفسه... وحاشاه... فهو ممحض للحق مع الخصوم والأتباع معاً...

إنه يقول تقييماً لرهبان النصارى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ

مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٣].

لكن هذه الصورة المضيئة عن الرهبان الذين آذنوا للحق؛ لا تمنع من تقديم الصورة المعتمة عن أولئك الرهبان الذين يكنزون الذهب والفضة، ويأكلون أموال الناس بالباطل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

وفي مقطع آخر ينزل كتاب اله غضبه القاصم على النصارى الذين قالوا بأن المسيح ابن اللّٰه (وحاشاه) والذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيح بن مريم أرباباً من دون اللّٰه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣٢].

ثم يعود كتاب اللّٰه ﷻ لكي يقدّم تصوّره العادل للرهبانية

النصرانية في جانبيها المضيء والمظلم على السواء: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

الموقف الوسطي العادل يكرر نفسه مع اليهود، أولئك الذين آذوا رسول الله ﷺ وألحقوا بدعوته المتاعب والمنغصات، وحشدوا لضرب دولته الإسلامية الحشود والأعداء... بل قبل هذا وذاك وقفوا المواقف الخبيثة المسمومة، نفسها، تجاه أنبيائهم... ودينهم... وعقيدتهم... فقتلوا وحرّفوا وطمسوا على الحقائق، ووصل بهم الأمر إلى أن يلتوي سلوكهم مع أنفسهم ومع الآخرين، ويصل بهم إلى الطريق المسدود، الذي لا يُرجى معه شفاء.

والقرآن الكريم يقدّم عن هذه الممارسات السافلة لليهود، عبر التاريخ الكثير الكثير بدءاً من المساحات الكبيرة التي تتحدث عن سلوكهم الملتوي هذا في سورة البقرة... وحتى مقاطع القرآن الأخيرة...

لكنّ هذا كلّه لم يمنع كتابَ الله أن يقف مدافعاً عنهم، مبرّراً ساحتهم من تهمة كاذبة ألحقها بهم بعض المحسوبين على المعسكر الإسلامي من المنافقين والضلال، منزلاً غضبه القاصم عليهم، متوعّداً إياهم أن يعودوا لمثلها بكلمات تقدح شرراً وناراً

(وقد عرضنا لهذا الموضوع بالتفصيل في بحث: الحياة التي يريدها كتاب الله) من هذا الكتاب فلا مبرر لإعادة القول فيه.



[٦]

في المقطع الأخير من سورة الجمعة، نلحظ التوازن المرسوم نفسه، ذلك الذي اعتمدته كلمات الله في التعامل مع الأمور: الدعوة الصارمة للتفرّغ للعبادة وذكر الله... يوازيها أمر لا يقلّ صرامة للانتشار في الأرض وابتغاء الرزق... فبدون ذلك التوازن بين المطلبين... بدون تنفيذ مطالبهما بالجدّ المطلوب؛ لن يتحقق المؤمنون بالفلاح في هذه الدنيا التي أريد لها أن تكون مزرعة للآخرة... وساحة ـ في الوقت نفسه ـ للبناء والإنجاز والعمران على عين الله...

ولنستمع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ٩ ـ ١١].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحرف الفاء الاستئنافية التي تختزل الزمن والمكان... ولا تترك أية مساحة متطاولة... بين نمطين من الأفعال... أحدهما تعبّدي... والآخر تجاري...

ورغم ذلك، فإن هنالك في المنطوق القرآني أولوياتٍ معينةً، تجعل من العبادة وذكر الله أساساً عميقاً متيناً تنهض عليه سائر الفعاليات، ومن ثم كان أيُّ تهاون أو تساهل في هذه الحقيقة، تعدُّهما كلمات الله لهواً وانفضاضاً عن هذا الهدف المركزي، الذي تغدو معه التجارة لهواً يتحتم ألّا ينسحب المؤمنون إليه تاركين العبادة وذكر الله...

الأمر نفسه نلحظه في الآية الأخيرة من سورة (المزمل): ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠].

فها هنا أيضاً نلتقي كفتَي الميزان: عبادة الله... والسعي في الأرض ابتغاء الرزق... والجهاد في سبيل الله... والاضطرار ـ بسبب الأوجاع والأمراض ـ إلى تقليص مساحة العبادة...

إن القرآن الكريم عندما يصدر أوامره، يلحظ بالرؤية الإلهية العادلة، كل الحالات التي يتقلب فيها الإنسان... كل المطالب التي تلحّ عليه في أن يستجيب لندائها... ومن ثم يعطيها المساحة المناسبة من أجل أن تمضي الحياة الإسلامية إلى غاياتها دونما أيِّ قدر من الخلل أو الميل او الانحراف...

إن إقامة الليل، وتلاوة القرآن، لهما هدف المؤمنين في هذه الدنيا... ولكن ماذا لو تفرغوا جميعاً لهذه المهمة فأهملوا الحركة في الأرض طلباً للرزق... وتخلَّوْا عن الجهاد في سبيل الله... ومارس المرضى منهم نوعاً من تعذيب الذات بحجة التقرّب إلى الله؟ ألا يقود هذا إلى تعطيل عجلة الحياة، وإصابتها بالمتاعب والشروخ؟!

إن الدلالة الزمنية التي ينطوي عليها هذا المقطع لتوحي، بأسلوبها المؤثر، بضرورة تقدير المؤمنين للزمن، وتقسيمه العادل، استجابة لمطالب الدين والدنيا معاً... إذا أردنا فعلاً أن نجعل من الدنيا طريقاً معبّداً للآخرة.



[٧]

وطالما حدثنا القرآن الكريم عن تفاهة الحياة الدنيا، وكونها زينة وتفاخر، وبأنها متاع الغرور... وعرض لسرعتها وانصرامها، فكأنها لحظات من عمر الزمن، واصفاً إياها بأنها يوم أو بعض يوم، وبأنها ليلة أو ضحاها، وبأنها أشبه بحفل للتعارف ما يلبث بعد ساعة أو ساعتين أن ينفض، حيث ما تلبث أسماء المتعارفين أن تُنسى، وتضيع ملامح وجوههم...

لكن هذا كله لا يعدو أحد وجهي التصوير القرآني للحياة الدنيا... ويبقى ثمّة الوجه الآخر: الإعمار والتنمية وتوظيف

الخبرات العلمية للنهوض الحضاري، فيما نجده في كل الآيات المتعلقة بالتسخير والاستخلاف والاستعمار (بدلالته اللغوية وليست الاصطلاحية): ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [هود: ٦١] أي خلقكم في هذا العالم لتنميته وإعماره من أجل أن يكون بيئة صالحة لعبادة الله، بدلالتها الحضارية وليست الطقوسية الشعائرية، حيث يصير كل فعل يمارسه الإنسان عبادة يتقرّب بها إلى الله... فيما يذكّرنا بحديث الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام): (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألّا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر).

العمل والإعمار وزراعة الأرض، ماضٍ في المنطوق الإسلامي حتى اللحظة الأخيرة من عمر الحياة البشرية... وحتى لحظة النفخ في الصور...

فأيُّ توازن مدهش هو هذا بين (تصغير) الحياة الدنيا (ولنلاحظ كلمة الدنيا هذه) في عيون المؤمنين، من أجل ألّا تأسرهم عن المضيِّ بعيداً فيما وراءها، من آخرة، ومن حساب وثواب وعقاب... وبين (تكبيرها) من أجل ألا يتركوها للآخر، فيتمكّن منها، ويُحكم قبضته على رقابهم، ويسومهم سوء العذاب...

أيُّ توازن مدهش هذا بين أن نضع الآخرة نصب أعيننا ونركل الدنيا بأقدامنا، فيما يذكّرنا بعبارة (النفّري) في كتابه (المواقف والمخاطبات): (يا عبدي إذا قمت إلى الصلاة فاجعل الدنيا كلها تحت قدميك)... وبين أن نقدّرها حق قدرها باعتبارها

الفرصة الوحيدة لاختبارنا، ولتمكيننا من تنفيذ مشروعنا الحضاري الذي يلتقي فيه، من بين سائر المذاهب والأديان: الوحي بالوجود... والدنيا بالآخرة...! والله سبحانه بالإنسان... والروح بالجسد... والفرد بالجماعة... والعدل بالحرية... والإيمان بالعلم... والمنفعة بالجمال!!

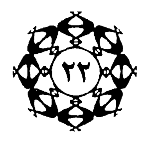
أيُّ توازن مدهش هذا الذي يمسك كتاب الله من طرفيه فيقدّمه للناس في أوضح صورة، وأشدها إقناعاً... وأكثرها عذوبة وجمالاً؟!

هذه مجرد شواهد قرآنية ستة، وغيرها العشرات والمئات منبثة في ثنايا كتاب الله، على الرؤية القرآنية العادلة، المتوازنة، التي تعرف، بعلم الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، كيف تتعامل مع كل حالة وفق مكوّناتها وأطرافها جميعاً... أفتنقضي عجائب هذا الكتاب[1]؟!



---

(١) تمت معالجة جملة من الثنائيات الأخرى في عدد من مؤلفاتي السابقة، من مثل مقال (دعوة للتوزيع العادل للزمن)، ومقال (الزوايا المختلفة للصورة) من كتاب (آيات قرآنية تطل على العصر)، ومقال (ويل للمصلين) من كتاب (في الرؤية الإسلامية)، والتحليل الخاص للآية ٦٥ من سورة الأنفال من كتاب (متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة).



دين التحرير

كان الإسلام منذ اللحظة الأولى، عملاً تحريرياً، وعلى المستويات كافة... لقد بدأ برفع شعاره الانقلابي **(لا إله إلا الله)** لكي يحرر الإنسان من الضلالات والأوهام والطواغيت والأرباب... ومضى لكي يمارس تحريره من الخوف... والجهل... والأمية... وكل صنوف الكبت المدمّر... ومن الخضوع للفوضى، وضغوط الكتلة، والانحناء للصدفة العمياء... وتبصيره بقوانين العمل والحركة التي يسير الكون والعالم والتاريخ بموجبها...

إن الميزة التحريرية هذه تصبغ دعوة الإسلام وتتشابك مع نسيجها الفذّ، وتسعى بإلحاح لتحرير رغبات الإنسان وأشواقه الجسدية والروحية، وفتح الطريق أمام دوافعه وحاجاته ومنازعه دونما إفراط أو تفريط.

وهي ميزة ترتبط أشد الارتباط بمفاهيم الحركة، كما وردت في كتاب الله، وفي أبعادها كافة: الكونية، الإنسانية، الاجتماعية، السياسية، الفكرية، والعقدية...

كما أنها دعوة للخروج من الضيق الذاتي والاجتماعي والسياسي والعقدي...

وحيثما قلّبنا أنظارنا في نسيج هذا الدين، المحكم، الشامل، المحيط، وجدنا أنفسنا قبالة دعوة واضحة، صريحة، للتحرير، بمفاهيمه كافة...

فلنبدأ رحلتنا إذن مع هذا البعد الثوري الانقلابي في ديننا وعقيدتنا، وبالإيجاز الذي يتطلبه بحث موجز كهذا.

على مستوى الكون... أو الكوزمولوجي بالتعبير العلمي المعاصر، نجد أنفسنا قبالة طبقتين من حركة الخلق، وهي بثنائيتها هذه تنطوي على بعد تحريري في أصل الخليقة التي هي أولاً وأخيراً من صنع الله الذي أتقن كل شيء...

الطبقة الأولى تقوم على **الكينونة**... على الخلق الكوني ابتداء بكلمة **(كن)**، التي إذا أرادت شيئاً فإنما تقول له **(كن، فيكون)**: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

ثم ما تلبث (الكينونة) التي قد تنطوي على السكون الذي هو نقيض الحرية والحركة، أن تتحول، بإرادة الله إلى (الصيرورة)...

وهكذا يمضي البناء الكوني وفق مفهوم التنامي الحركي إلى ما شاء الله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠]، ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٤٦]، ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

إننا هنا بإزاء تحويل الساكن إلى متحرك، لحكمة يريدها الله تعالى... تحريره من السكون وتحويله إلى الحركة التي تنطوي على دلالات شتى بما فيها التنامي والامتداد والتطوير، وتلبية المطالب الأساسية للحياة وللبيئة الكونية على السواء...

إننا هنا نعثر على مفتاح الخلق الكوني... إنها إرادة الله التي لا رادّ لها والتي تنشئ وتصيّر هذا الخلق من حال إلى حال... بخلاف التفسير العقيم، الذي طرحته المادية الديالكتيكية، والتي فسّرت المتغيرات الكونية كما لو أنها تتم دون قصدية مسبقة...

هكذا تتحول الكميات إلى متغيرات نوعية... وهي حالة تنطوي على الاستحالة المطلقة... لأنه ـ وكما يقول الناقد الإنكليزي الكساندر غري ـ لو جئنا بجذع شجرة وطرحناه أرضاً، بانتظار أن يتحول ـ بالصدفة ـ إلى منضدة صالحة للكتابة: بقوائمها ومجراتها وسطحها الأملس، ملايين السنين، فإنها ستظلّ على حالها!!

إن الرؤية القرآنية للخلق الكوني... رؤية علمية بمعنى الكلمة، لأنها تجيء من لدن حكيم خبير هو الله ﷻ... جلّ في علاه...

وثنائية الكينونة والصيرورة هذه هي الخط العريض التأسيسي الأوّل لمفهوم التحرير الذي جاء به هذا الدين... عدم الثبات أو السكون أو الأسر على الحالة الواحدة، وإنما الانعتاق والتجدد والتطور... أي الصيرورة التي تمضي بمفردات الخلق هذه إلى غاياتها وتحرّرها من الجمود...

وهذا ـ مرةً أخرى ـ يقود الإنسان إلى التحرّر من ضغوط الكتلة، والانحناء لمواضعات البيئة، والخضوع لحتميات الجغرافيا... والأسر في كل صيغ الصدفة، والكهانة، والسحر، والخرافة... إنها رؤية تقدمية بمعنى الكلمة، تتضاءل عندها ادّعاءات الماركسيين والعلمانيين، وتغدو فجاجة وسخفاً لا يستحق أيَّ قدر من الاحترام...

❁ ❁ ❁

أما على مستوى الإنسان والحركة البشرية، فإننا نلمح البعد التحريري لهذا الدين عبر سياقات ثلاثة: السياق الذاتي ـ الروحي، والسياق الاجتماعي ـ السياسي، والسياق العقدي.

فأما على المستوى الأوّل، فقد اعتبر الإسلام الإنسان المسلم مشروعاً دائماً للتحرّر والصعود عبر محطات الإسلام، فالإيمان، فالتقوى، فالإحسان... وسمى كفاحه الصعب هذا بالجهاد الأكبر، لأنه يتطلب مقاومة فائقة لكل صنوف القهر والاستلاب والإغراء والإغواء، وتجاوزها... إنه ملاحقة يومية، دقيقة بدقيقة وساعة بساعة، بين (الحسنات) و(السيئات)... دفتر الرصيد المفتوح لتسجيل أرقام الإيجاب وتضييق الخناق على أرقام السلب، من أجل تحرير الإنسان من شتى صنوف الضغوط التي تسعى لأسره واستعباده وتقييد حريته.

إنها فاعلية تحرّر الإنسان من الإحساس بالتأثم، وهيمنة الخطيئة على عقله ووجدانه... إنها تمضي حتى إلى ما يسميه (فرويد) بالأنا الباطنية... اللبيدو... لكي تنظّفها وتغسلها، وتجعلها تتوافق مع الأعراف الاجتماعية ومطالب الدين... إنها رياضة روحية صعبة، ولكنها ممتعة بقدرتها على تجاوز العقبات، والتفوق عليها، وتصفيتها في نهاية الأمر...

إنه الطريق المفتوح للتحقق بالحرية... والإحساس بالتوحّد والائتمان الذاتي، وعدم جعل الخطايا تطوّق الإنسان من جهاته الأربع، وترغمه على الخضوع والانكسار. فما دام الإنسان قديراً على ملاحقتها، واستبدالها بالمعطيات الايجابية؛ فمعنى هذا منحه الأمل بالتحرر من ضغوطها، وإيقافه قبالة كلمة الله ﷻ وأوامره... خفيفاً نظيفاً متطهراً وسعيداً... وما أروعه من إحساس،

حيث لا هيمنة مطلقاً لقوى الشدّ التي تسعى إلى سحبه نحو الأسفل...

بل إن الإنسان، في المنظور الإسلامي، حرّ ابتداءً في أن يختار الطريق الذي يسلكه في الحياة الدنيا... وطريق الخير أو طريق التيه والضلال... والمسؤولية تقع على عاتقه وحده في هذا الاختيار الذي تُرك أمامه مفتوحاً حتى مداه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٦ ـ ٣٧].

ثم إن العدل الإلهي يقتضي ـ لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى ـ أن يمنح الفرص للجميع، مؤمنهم وكافرهم، تقيّهم وفاجرهم على السواء، ما دام قد كتب لهم الحياة، فليأخذ كل منهم حظه الكامل منها شقياً أو سعيداً: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١]، ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن

نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦].

وتلك هي لازمة الكرامة الإنسانية... التفرّد الإنساني في هذا العالم، أن يُمنح ـ خلافاً للخلائق الأخرى ـ حرية الاختيار، وأن يتحمل مسؤوليته كاملة: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٤١].

وذلك هو مقتضى كرامة الإنسان وسيادته على العالمين: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وأما على المستوى الاجتماعي والسياسي، فقد جاء هذا الدين لكي ينشئ مجتمعاً لا ظالم فيه ولا مظلوم... ولكي يحرّر الإنسان من كل صنوف الابتزاز، وينفخ فيه روح الحركة من أجل تجاوز مواقع القهر والكبت والانكسار والاستعباد، إلى الحرية الحقيقة على امتدادها... ونادى كتاب الله ﷻ المضطهدين في هذا العالم، وبأعلى نبرة، أن يتحركوا وألّا يستسلموا للظلم بكل صيغه وأشكاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن

يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧ ـ ١٠٠]، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

ودعاهم ألّا يستسلموا للقهر والجوع: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]...

وحذّرهم من السكوت على فتنة الظلمة الفجار، وأنهم بسكوتهم هذا سيتلقون عقاباً قد يمضي لافتراس الجميع: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]...

وناداهم أن يمارسوا مهمتهم الأساسية في هذه الحياة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أجل أن يحيوا حياة آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤ ـ ١٠٥]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

والحق أن الإسلام، كان منذ اللحظة الأولى عملاً تحريرياً وعلى المستويات كافة، وقد عرضنا لذلك بالتفصيل في غير هذا الكتاب(١) فلا مبرّر لإعادة القول فيه.

في المستوى العقدي الذي يقوم عليه البنيان كله، دعوة واضحة صريحة للتحرير... إنها الخروج بالناس من ظلمات القهر والعبودية والجهل والضلالة والطرق المعوجّة، إلى نور الإسلام وعدله وصراطه المستقيم واستجابته لمطالب الإنسان: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦]، ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ [الحديد: ٩].

إنه تحرير الإنسان والخروج به من شتى أنماط الاستعباد

---

(١) ينظر: (حول تشكيل العقل المسلم) و(مدخل إلى الحضارة الإسلامية) للمؤلف.

السياسي والاجتماعي والنفسي... إنه تحرير له من حكم الطاغوت الذي يمسك برقاب الإرقاء والمستعبدين... إنه خروج بالناس، كما قال الفاتحون وهم ينطلقون في الأرض ويدكّون عروش كسرى وقيصر التي استعبدت الناس من دون الله ﷻ: (الله ابتعثنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده)...

التحرير الذي ينطوي ـ بالضرورة ـ على مفهوم التعامل بالقوة، إيجابا مع التعاليم القادمة من السماء، وسلباً مع الطواغيت والأرباب... ومع الخصوم والأعداء... وكسر الأيدي التي تمارس خنق حرية الإنسان... وحرية اختياره الديني والعقدي... وتهيئة الفضاء الواسع مفتوحاً بسمائه الكبيرة أمام الإنسان دونما أي عائق أو تزييف...

إنها (الثيمة) القرآنية التي طالما ترددت في كتاب الله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ﴾ [البقرة: ٩٣]، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]، ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

❁ ❁ ❁

ولن تتحقق حرية الاعتقاد... لن يتحقق خيار الإنسان الحرّ في الانتماء إلى أية عقيدة أو دين... ما لم يتحرك المسلمون في ساحات العالم، ويدخلوا على الآخرين... ليس بالضرورة بقوة السلاح التي لابدّ منها إذا أريد للطاغوت أن ينسحب من حكم العالم... ولكن بقوة الفكر والعقيدة التي بمقدورها أن تفتح الأرض وتجلب حشود الضائعين والحيارى إلى هذا الدين...

ومن ثم نلتقي بـ (ثيمة) موازية للقوة، تتردد هي الأخرى في جنبات القرآن الكريم مخاطبة المؤمنين في العالم بأن يأخذوا زمام المبادرة، وأن يبدؤوا هم الدخول على الآخرين... وإلّا فإن الآخر سيدخل عليهم ويقتلعهم من الجذور... فليس ثمة حلّ وسط، أو منطقة حرام، أو جزيرة محايدة بيننا وبين الآخر... فإما أن ندخل عليهم سلماً أو حرباً، أو أن يدخلوا علينا سلماً أو حرباً، وتلك هي شهادة التاريخ على امتداده الطويل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ١٥٤]، ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١].

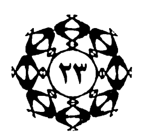
❁ ❁ ❁

تلك هي ـ بإيجاز شديد ـ قضية التحرير في هذا الدين...

وهي مسألة توغل في شرايين تعاليمه، وتتحرك في كل اتجاه ذاتي أو اجتماعي أو عقدي، فتمنح الحرية للإنسان...

الحرية في مداها الواسع الذي لا يأسره إطار، ولا يحدّه قيد، ما دامت تجيء منضبطة بمطالب الهدي الإلهي الذي يعلو ـ وحاشاه ـ على التحيُّز والهوى، والذي يعرف كيف يتعامل مع الكائن البشري، بعيداً عن دينه أو عقيدته أو انتمائه... أليست هي من صنع الله ﷻ خالق الإنسان؟!





دين الكادحين

هل يمكننا القول بأن الإسلام هو دين الكادحين؟

نعم... وبكل تأكيد... وقد سبق لي أن عرضت في كتابي (مقال في العدل الاجتماعي) الذي صدر في سبعينيات القرن الماضي، وأعيد طبعه مراراً فيما بعد، وكانت آخر طبعاته تلك التي أصدرتها دار ابن كثير في بيروت عام (٢٠٠٨م)... حشوداً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ومعطيات السيرة النبوية، ما يغطي عشرات الصفحات، ويقدّم بالدليل المؤكد القاطع أن هذا الدين هو ـ بالفعل ـ دين الكادحين.

ولكني أريد في مقالي الموجز هذا أن أوسّع المنظور، لكي يمضي إلى التراث النبوي كلّه عبر تاريخ البشرية، والذي جاء الإسلام لكي يتمِّمه ويضع لمساته الأخيرة، ويقدمه للناس في كل زمن ومكان نموذجاً فذّاً في العدل الاجتماعي عبر أقصى وتائره فاعلية ومساواة... ولكي ينصف المظلومين والفقراء والمسحوقين والمستعبدين، وينزل حممه على الأغنياء المترفين والطواغيت ورجال الدين، الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله!!

إننا إذا رجعنا في الزمن إلى عصور الأديان الأولى في التاريخ البشري... دعوة نوح عليه السلام التي استغرقت تسعمئة وخمسين عاماً... فاننا سنعثر على التأسيس المبكر لخط الرسالات الذي يبدأ بآدم وينتهي بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إن الذين انتمَوْا إلى دعوته ـ بادئ ذي بدء ـ هم الفقراء والمستضعفون والكادحون... الأمر الذي استفزّ أصحاب المال والجاه والسلطة والمكانة الاجتماعية، فنظروا بازدراء إلى هؤلاء وأدانوا نوحاً عليه السلام بأنه يلمّ حوله الغوغاء وأراذل القوم.

فلنتابع الصورة بتفاصيلها كما يعرضها علينا كتاب الله في سورة هود:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ

إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٣٦].

وفي سورة الشعراء يعاد المشهد نفسه... ذلك الحوار الحسام بين نوح عليه السلام وبين رؤوس قومه من الأثرياء والمترفين وأرباب السلطة والطواغيت... هؤلاء يدينونه بأن الذين التمّوا حول دعوته هم من الرعاع والأراذل والكادحين والمسحوقين... وهو يجابههم بالتزامه هذه الشريحة من الناس وأنه لن يتخلى عنهما مهما كلَّف الأمـر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١٢٢].

ولقد جاء الطوفان الإلهي ليكتسح، ويغرق، كل المترفين الذين ساوموا نوحاً عليه السلام لكي يطرد من صفوفه الكادحين... فلم يكترث

لأطماعهم... وجبروتهم... وطغيانهم... وأسند ظهره للإرادة الإلهية، التي تنزّلت بما لم يكن في حسبان هؤلاء... الإغراق الشامل للفساد الذي يتمخض دائماً عن الترف والسلطة والجاه...

أية صورة هذه يقدمها كتاب الله عن طرفي الصراع في العالم: المترفين والكادحين... وأنه يقف مع الفئة الأخيرة ويكتسح الأولى اكتساحاً فلا يبقي لها على أثر!!

❁ ❁ ❁

وثمَّة في سورة الكهف... عبر قصة النبي موسى عليه السلام والخضر، صورة أخرى لا تقل دلالة: وقفة صارمة ضد الملوك والطواغيت، حتى لو تطلّب الأمر اعتماد ما يسمى بسياسة الأرض المحروقة كي لا يترك الكادحون أية فرصة لابتزازهم: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ . . . قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧١ ـ ٧٢، ٧٨ ـ ٧٩].

إنها والحق يقال صورة صارمة تنطوي على الكثير من الدلالات (الشورية) في قضية الصراع بين الذين يملكون الثروة والسلطان وأولئك الذين لا يملكون...

والصراع الذي لا يرحم ماضٍ في كتاب الله بين الأنبياء جميعاً وبين خصومهم من الجبابرة والطواغيت والمترفين: ﴿كَذَّبَتْ

عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٥٩].

وإنما يجيء عقاب الله لكي يكتسح الفئة الأولى، ويمدّ بالبقاء للفئة الأخرى، تلك هي سنة الله في العالم... لأن جرثومة الفساد، والبغي، والطغيان، والاستلاب، واحتقار المعدمين، وابتزاز الكادحين

تتسلسل في حجيرات هؤلاء، فتلتوي بسويّتهم النفسية وتقودهم، شاؤوا أم أبَوْا، إلى مواقع الظلم والطغيان: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

❁ ❁ ❁

وبينما تنصب الأوصاف والنعوت القاسية السيئة على الفقراء المعدمين في المجتمعات التي يسودها الترف والطغيان فيوسمون بالأوباش والأراذل والسوقة والأدنياء والمتطفلين... الخ... ينعكس الموقف في القرآن الكريم حيث تُوجّه أقسى الكلمات إلى (أصحاب المال) المارقين ويُرمَوْن بأقسى النعوت. ها هو أحد المقاطع يتحدث عن (أحدهم) مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٦].

ولا نجد في كتاب الله، في مقابل هذا، أي نعت أو صفة سلبية، تلحق الفقراء والمعدمين، وكل ما ورد عنهم إنما جاء على لسان الكفار والمترفين أنفسهم من تسمية هؤلاء بأراذل القوم، وأنهم طليعة من يتبع الأنبياء وهم يدعون قومهم إلى الإيمان: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧].

«ولم لا يكافأ هؤلاء الناس البسطاء، ذوو الصفحات البيضاء والطويّة السليمة، والتوجّه الخيّر، والقلوب التي تشع نوراً؟ لم

لا يكافأ هؤلاء الأطهار الطيبون الذين لا يفعلون إلا طيباً، ولا يقولون إلا طيباً، والذين يتوحد في ممارستهم الفعل والكلمة، فلا يعرفون معنى للنفاق، والالتواء، والازدواج؟

لم لا يكافأ هؤلاء الذين يلبون نداء الحق أول من يلبي، ويتجمعون، بدافع فطرتهم النقية، وتوحدهم، حول كل نبي أو رسول أو داعية، يدافعون عنه يوم يلاحقه الكبراء، ويحمونه في لحظات الأذى والعدوان، حين يعتدي عليه الملأ، وتطارده النخبة الممتازة... ويلتمّون حواليه يوم ينفضّ عنه الواجدون والمترفون، ويعز النصير؟

إنهم يشكّلون نواة كل دين أو دعوة حق، وقاعدتهما التي تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، فتحوّل الفكرة إلى واقع مشهود، والحلم إلى ممارسة تمنح خيرها للناس؟

والقرآن الكريم يقف أكثر من مرة عند هؤلاء... وآياته البينات تتنزل لكي تتحدث عنهم بمحبة واعتزاز، ولكي تمنحهم الوعد الجميل بالمصير... ليس فقط لأنهم منحوا حياتهم، ومحضوا وجودهم للدعوة، في لحظات الاجتياز الصعبة، بل لأنهم كانوا يعبّرون بسلوكهم، عن أقصى حالات التوحّد، والتوافق، والانسجام، بين الفعل والكلمة...

هؤلاء أعطوا الكثير، فاستحقوا الأجر الكبير!

إننا نقرأ في كتاب الله خطاباً إلى رسوله الأمين (عليه أفضل الصلاة والسلام): ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ

فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٥]، ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١ ـ ١١].

ورسول الله ﷺ كان عبر حياته جميعاً صديق هؤلاء البسطاء الكادحين... كان أخاهم الكبير... يحبهم ويحبونه... ويربّت على أكتافهم بحنان، وهم يقفون بين يديه مسلمين، مخلصين، تغمر وجوههم البسمةُ الحانية، ويعمر قلوبَهم الودُّ والفداء... من أجل هذا تحدث عنهم قائلاً فيما رواه مسلم (رب أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره)... ولقد لبى هؤلاء البسطاء نداء الفتح منذ اللحظات الأولى، وما كان بمقدور القيادات الإسلامية، على تألّقها وتفوّقها وفدائيتها، أن تصنع شيئاً لولا هؤلاء الجند الذين شكلوا عصب الحركة، وحولوا مطالبها إلى واقع منظور...

وفيما بعد، وعبر المسار الطويل للتاريخ الإسلامي... عبر جلّ

التحديات التي شهدها عالم الإسلام، والضغوط التي مورست ضده، أو قبالة كل الهجمات التي شنّها الخصوم... كان هؤلاء (البسطاء) يشكّلون الخامة الإسلامية في خط الثغور، وبأذرعهم قدر هذا العالم على الدفاع عن أراضيه، والتوسع والامتداد في ديار الخصوم والأعداء.

لقد أدرك فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع الدور الخطير الذي تمارسه هذه الجماعات البسيطة التي تتحرك في أسفل السلّم الاجتماعي، وحدّثنا (أرنولد توينبي) في تفسيره الحضاري للتاريخ، عن الأكثريات المتبعة، والأقليات المبدعة، وعن أن حضارةً ما لا تأخذ سبيلها إلى التحقق ما لم يتم التواصل بين القطبين، فتتلقى الأكثريات المتبعة معطيات الإبداع، وتؤمن بها، وتتبناها، وتنفذها في أرض الواقع، وتنشرها في الآفاق... أما (كارل ماركس) فقد مضى، بإلحاحه المعروف، وتعميماته المبالغ فيها، إلى إلغاء دور النخبة، وعلق الفعل التاريخي على أكتاف الجماهير الكادحة وحدها.

وفي كل الأحوال، تظلّ كلمات الله ﷻ، وتعاليم رسوله ﷺ الشاهد العدل على ما يفعله هؤلاء وهؤلاء: أولئك الذين يتربعون في القمة، أو يتحركون عند السفوح، وتظلّ الحكم العدل الذي يمنح المصير المناسب لكل الأقطاب، شرط أن تتحقق ـ الأقطاب ـ بطرفي المعادلة: الإيمان والعمل الصالح، وإلّا فإنه باطل إيمانهم وعملهم؛ إن لم يلتقيا ويتعاشقا من أجل تنفيذ كلمة الله في هذا

العالم: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩]، ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢]، ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]...»(١).

❁ ❁ ❁

ثم ماذا بعد؟

هل يستنتج من السياق آنف الذكر أن الإسلام هو دين الصراع الطبقي، وأنه ما جاء إلّا لكي يعيد للطبقات المسحوقة مكانتها الاجتماعية في مواجهة الطبقات المالكة والمترفة؟

أبداً... ولن يخطر هذا على البال، بمجرد الرجوع إلى واقعة عصر الرسالة الذي يعكس بمرآته الصافية كالبلّور... أن الأمر لم يكن كذلك، بدليل أن أوّل المنتمين لهذا الدين كانوا من علية القوم... أولئك الذين يملكون الكثير، والذين سبق وأن تبوّؤا في القيادة المكية المسماة (رجال الملأ) أعلى مكانة: أبو بكر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف... وعمر بن الخطاب... و... و... جاء هؤلاء ووضعوا أنفسهم في صف واحد مع

---

(١) ينظر بالتفصيل: عماد الدين خليل: رؤية إسلامية في قضايا معاصرة، كتاب الأمة، العدد ٤٥، الدوحة ـ ١٤١٦هـ، ص ١٣٣ ـ ١٣٨.

الضعفاء والمسحوقين والمستعبدين... إخوةً على الطريق... وعملوا معاً... الذين يملكون والذين لا يملكون... في سبيل الدعوة الناشئة، وشكّلوا قاعدتها الأساسية، قاعدتها الصلبة التي قُدّر لها أن تمضي إلى أهدافها، وأن تنشئ دولة الإسلام... وأن تغيّر بها خرائط العالم القديم، وتحرّر الإنسان.

ليس ثمة في المنظور الإسلامي صراع طبقي، إنما هو العدل المطلق الذي بُنيت عليه السماوات والأرض، وجُبلت به سنن التاريخ وقوانين حركته.

ولقد جاء هذا الدين لكي يحقق مفاهيم العدل بأقصى وتائرها فاعلية، فينصف الفقراء والمستعبدين، ويرفع سويتهم المعيشية، ويحررهم من الرق والاستعباد... ويدفعهم مع إخوانهم الأغنياء معاً على الطريق... كلٌّ يضحي بالذي يملك من مال أو جاه أو سلطان، أو قدرات جسدية... أو طاقات روحية... في سبيل الهدف الواحد والبؤرة التي التمّ حولها الجميع... يداً بيد... من أجل أن تنتصر كلمة الله بسواعد وسيوف الذين يملكون والذين لا يملكون...

ومن أجل أن تستقيم سنن الحياة الجديدة، التي جاء هذا الدين لكي يرسي دعائمها... كان لا بدّ من ملاحقة كل صنوف الفقر والاستعباد والجوع... ورفع أصحابها المسحوقين إلى درجة الكفاية، ووضعهم صفاً واحداً مع إخوانهم الذين قدّموا طواعية، بل تنازلوا لهؤلاء عن الكثير مما يملكون استجابة لشيء واحد: قوة الإيمان!!

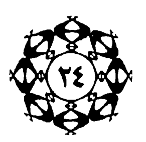
ليس ثمّة أيّةُ لمسة من لمسات الصراع الطبقي، وإنما

ـ بالعكس ـ كان التواؤم والتصالح والالتقاء بين الطرفين، في مواجهة قوى الشرك والوثنية، لتعزيز كلمة الله في الأرض... فهو من ثم صراع بين الإسلام والكفر، وليس بين طبقة وأخرى، داخل الصف الإسلامي الواحد، الذي لم يخطر في بال المنتمين إليه، أغنياء وفقراء، سوى التوحّد والانصهار في بنية الدعوة التي مضت تشق طريقها من أجل تحرير الإنسان... مطلق إنسان... وبعيداً عن كل الاعتبارات الاقتصادية أو المادية التي يريد البعض إدخال الحركة التاريخية من عنقها الضيّق...

❁ ❁ ❁

وثمّة ـ أخيراً ـ سؤال قد يتبادر إلى الأذهان وهي تتأمل هذا المقطع القرآني المدهش: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [الحشر: ٧].

لماذا ـ إذن ـ لم يجعلها الإسلام مشاعيّة للتحقق بهدف كهذا؟ والجواب يثير الدهشة هو الآخر في إعجاز هذا الدين، وأنه من لدن حكيم خبير... ذلك أن المشاعيّة تُلغي الحافز الفردي، وتستأصل رغبة الإنسان الأصيلة في التنمية، وقد تبيّن ذلك من خلال فشل الشيوعية الذريع... وبالتالي فإن القرآن الكريم بقدر ما يؤكد على ضرورات التساوي قدر الإمكان، بقدر تأكيده ـ في الوقت نفسه ـ على حماية الملكية الفردية، وتحفيزها، واعتبار الدفاع عنها والقتال دونها أمراً مقدساً، وجهاداً في سبيل الله!!

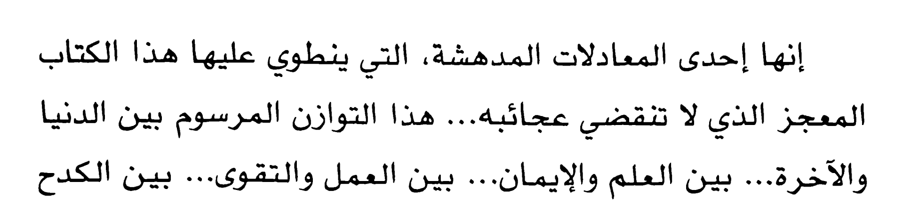


حول النشاط العمراني في كتاب الله!!

ما أروع الصورة التي يرسمها كتاب الله عن النشاط العمراني الذي يستهدي بتعاليم الله... النشاط العمراني على إطلاقه... زراعة وصناعة وتجارة وفنوناً...

إنها ـ ابتداءً ـ تريد أن تقول لنا... تؤكد علينا... أن هذه الدنيا ليست ممرّاً خرباً علينا أن نعبره ولا نعمره... بل على العكس تماماً... إنها الساحة التي أُعدّت للامتحان البشري في قدرته على إعمارها وتحسينها وتزيينها... وملئها بالخير الوفير من أجل أن تكون البيئة الصالحة لعبادة الله بالمفهوم الحضاري، وليس الشعائري أو الطقوسي المحدود... حيث يصير كل فعل أو ممارسة أو إنجاز في هذا الحقل أو ذاك، عبادة يتقرّب بها الإنسان والجماعة البشرية إلى الله جلّ في علاه...

النشاط العمراني على إطلاقه، زراعة وصناعة وتجارة وفنوناً... شرط أن ينضبط بكلمات الله وتعاليمه، التي تجعله مؤهّلاً لإسعاد الإنسان، وتبعد به عن الانفلات باتجاه الشر والضلال، الذي يقود الإنسان إلى البؤس والتعاسة والشقاء...



إنها إحدى المعادلات المدهشة، التي ينطوي عليها هذا الكتاب المعجز الذي لا تنقضي عجائبه... هذا التوازن المرسوم بين الدنيا والآخرة... بين العلم والإيمان... بين العمل والتقوى... بين الكدح والتجرّد... وبين مطالب الجسد ونداءات الروح والوجدان...

إنه يريد أن يقول للناس: إذا كانت الحياة الدنيا رحلة عابرة في المنظور الإيماني... وقفة سريعة تحت ظل شجرة ما يلبث أصحابها أن يغادروها إلى الأبدية... فإن عليكم أن تعتصروها حتى الثمالة... إنها فرصتكم الوحيدة، وامتحانكم الصعب الذي لا امتحان بعده... وإن عليكم أن توغلوا في نواميسها وأسرارها التي سخرها الله لكم، من أجل أن تحيوا الحياة المتحضرة، التي تليق بالإنسان الذي كرّمه الله على العالمين، وعلّمه، منذ لحظة خلقه الأولى، الأسماء كلها...

لقد أُريد له منذ البدء أن يكون إنساناً متحضراً بمعنى الكلمة... من أجل أن يبني الدنيا بما يجعلها البيئة الصالحة لعبادة الله ﷻ، والتوجّه إليه في المسير والمصير...

لقد أريد له أن يعمل... ويكدح... ويبني... ويعمر... من أجل أن يتحرر من الضرورات... من شدّ الأرض وكثافة الطين... بالتنقيب في الطين واستخراج مذخوراته، وبناء العالم الذي يعمّ خيره على جميع الكائنات، فيحررهم من الضرورات، ويمحضهم للتوجه إلى أعلى... صعوداً إلى ما يريده الله ﷻ من حياة وضيئة نظيفة متحضرة تليق بكرامة الإنسان.

إن القرآن الكريم يخصص آيات بيّنات ومقاطع عديدة... بل سوراً بكاملها لهذا اللقاء المرتجى بين النشاط العمراني، وبين الالتزام بتعاليم الله... الوفاق والتصالح بين القوى الطبيعية وبين الإنسان المؤمن... القيادات النبوية الحكيمة التي تمسك بالميزان بالعدل والقسطاس، فلا تنحرف بها إغراءات القوة والجبروت عن الصراط... صورة مؤثرة عن النشاط العمراني: زراعة وصناعة وتجارة، ذلك الذي يستهدي بكلمات الله. والدمار الذي يحيق به في حالة الكفران... وينقلنا عبر جغرافية الأرض إلى بيئات شتى... بعضها قدر على تحقيق الوفاق المطلوب فبلغ القمة في التحضّر والعطاء... وبعضها الآخر انقلب على عقبيه واستجاب لإغراء القوة والجبروت، فانحرف عن الطريق، وتلقى العقاب...

يحكي لنا عن فلسطين يوم أن تولى حكمها أنبياء كرام كداود وسليمان عليهما السلام... عن اليمن الذي سخّر لها سد مأرب العظيم فحوّلها إلى واحة خضراء مترعة بالعطاء... عن البتراء التي نحتت جبالها بيوتاً وقصوراً ومعابد وطرقات... عن مصر التي أغدق عليها نهر النيل العظيم وابلاً من النعم والخيرات... عن بيئات أخرى بلغ نشاطها التجاري قمة منحناه قبل أن يطيش بها الضلال، فيطفف في الميزان... ويتحول التعامل إلى منظومة قذرة من الاحتيال واللصوصية والكسب غير المشروع...

أحاديث... وعروض قرآنية ينفسح مداها... فلا تقف عند حدود التسخير... بل تتجاوزه إلى الآفاق الأبعد... فتحكي لنا عن

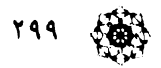
نسبية المعرفة البشرية مهما اتسع سلطانها وامتدت كشوفها... عن الموت الذي يقف بالمرصاد ويقول للناس أن هذه الدنيا ليست محطتكم الأخيرة، ولكنها بدء رحلة طويلة إلى الآخرة... فلا تغرّنكم منجزاتكم الكبيرة... فتنسيكم أنفسكم، وتغيّب عنكم الخرائط المحكمة، التي أريد لها أن تعلّم الإنسان طريق رحلته، وغاية وجوده على الأرض... وما ينتظره بعدها، من ثواب أو عقاب...

عن الشيطان الذي يتمركز سعيه في الأرض على الانحراف بالجهد البشري عن مساره الصحيح، المنضبط بكلمات الله وتعاليمه، إلى الضلال والفجور ونسيان نعم الله...

عن الصراع المحتدم القاسي والمتواصل بين الإنسان وبين كل القوى التي تريد أن تسحقه وتخرجه عن الطريق...

والقرآن الكريم ـ ها هنا أيضاً ـ يربط دائماً الأرض بالسماء... مؤكداً حاكمية الله ﷻ للكون والحياة ومضي كلمته التي لا رادّ لها في العالم... وهو يعيدنا ـ بين لحظة وأخرى ـ إلى يوم الحساب، وكأنه حاضر قبالتنا... وكأنه يذكّرنا بأن الحياة الدنيا، على كل ما فيها من متاع وعمران وتفوّق، إنما هي خبر ماضٍ... وأن الزمن الحاضر... الزمن الدائم الأبدي... المقيم... هو الذي سيجيء في المستقبل، والذي ستتكشف أستاره بعد يوم الحساب...

ذلك كله من أجل أن يفيء الإنسان إلى الحق والعدل اللذين أقيمت بهما وعليهما السماوات والأرض... واللذين أريد لهما أن يحكما التجربة البشرية... بالقسط والميزان... فيسعد الإنسان



والجماعات البشرية التي تعرف كيف تسخّر نعم الله السابغة عليها دون أن يضل بها الطريق...

❁ ❁ ❁

وطالما حدّثنا كتاب الله عن جملة من الخبرات التي تحمل دلالتها الواضحة والمؤكدة، على البعد العمراني الذي تنطوي عليه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا... ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٧ ـ ٣٨]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧]، ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [لقمان: ٣١]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢]، ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا

عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٣ ـ ٩٧].

فها هنا نلحظ كيف يعتمد ذو القرنين، هذا القائد المؤمن، قوى الأيدي العاملة، والحديد، والنار، والريح، والنحاس السائل، لكي يبني السد الذي يحمي المستضعفين في الأرض من عدوان الأقوياء...

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فها هنا دعوة قرآنية لتصنيع القوة العسكرية على إطلاقها... بدءاً من الرمح والسيف والسكين والخنجر... وانتهاءً بالبندقية والرشاش والمدفع والدبابة والطائرة والصاروخ... القوة على إطلاقها... من أجل إرهاب الأعداء المتكالبين على مقدرات هذه الأمة، والذين ما تمكّنوا منها هذا التمكّن اللعين زمن الاستعماريين القديم والجديد إلّا بعد أن أغمض المسلمون أعينهم ووضعوا بينهم وبين الخطاب القرآني سدّاً، وكفُّوا عن ملاحقة الخصم في ضرورات التصنيع العسكري وتطويره الدائم، وإلّا أصبحوا ـ وقد أصبحوا فعلاً ـ القصعة التي يولم عليها المولمون...

❁ ❁ ❁

وهذان اثنان من أنبياء الله: داود وسليمان عليهما السلام هيّأ لهما الله

ﷻ من طاقات الإعمار ما لم يهيئه لأحد من العالمين... وتبدأ الآيات القرآنية بالحديث عن التأسيس الذي يقوم عليه الإعمار في المنطوق الإيماني... إنه التوازن المرسوم بين العلم والحكمة... ففي أولاهما يتمكن هؤلاء الأنبياء من الإمساك بزمام القوة، التي تمكنهم من توظيف الطاقات الكونية المسخرة أساساً للإنسان... وفي ثانيتهما يجيء ضبط هذه القوة من الانفلات، والطغيان... فتمسك بها الحكمة وتعرف كيف توظفها للبناء وليس للهدم والتخريب والإرهاب، كالذي يحدث في العلم الوضعي المنفلت من معايير الحكمة، والذي قاد دولة عظمى كالولايات المتحدة إلى اعتماد القوة المطلقة لتدمير مدينتين يابانيتين هما هيروشيما وناكازاكي، اللتين لا تزال ذراريهما تعاني من آثار الاشعاعات النووية القاتلة... وتمضي لتوظيف قوتها المفرطة في سحق دولتي أفغانستان والعراق، حيث اعتمدت في أولاهما القنابل ذات الأطنان السبعة لإفراغ الكهوف والمغاور من الأوكسجين والقضاء على الحياة فيها؛ حتى ولو لم يكن يقطنها المقاتلون... وفي ثانيتهما أفرغت طائراتها خمسين ألف طن من اليورانيوم المخضب في جنوب العراق... لا تزال آثاره المدمرة تحصد مئات الآلاف من الناس!!

أما في ظلال القيادة النبوية، فلن يحصل شيء من هذا على الإطلاق... إنما هي الحكمة التي تمسك بالميزان فلا تسمح لإغراء القوة في أن يضرب على غير هدى... ولنقرأ في كتاب الله ﷻ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ

يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩ ـ ٨٢].

وتلفت انتباهنا كلمة (العلم)، التي تتردد عبر هذه المقاطع القرآنية التي تتحدث عما آتاه الله تعالى داودَ وسليمانَ من قوة وطاقات: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٥ ـ ١٧].

فبالعلم ـ إذن ـ يكون التفضيل على الإيمان الأعزل بما يملكه العلم من قدرة على توظيف الطاقات المسخرة للإنسان... وتلك لمسة قرآنية مدهشة في مسألة التعامل مع العلم في المنطوق الإسلامي... والإيماني عموماً...

ونمضي مع الآيات القرآنية التي تحدثنا عما آتاه الله لداود وسليمان عليهما السلام من علم تطبيقي مكّنهما من إنجاز الكثير: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ

ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١٣]، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٣٥ ـ ٤٠].

إنها ورشة عمل صناعي كبرى يشتغل فيها الحديد والنحاس السائل والريح والجن والشياطين من أجل إنجاز العديد من المعطيات التطبيقية.

ولكن ألا يلفت أنظارنا ـ ها هنا أيضاً ـ ذلك الفارق الحاسم بين الذي يستهدي بالإيمان وذلك الذي يتنكّر له... إن القرآن في هذه الآيات يوسّع المنظور فيلمّ في سياق واحد: المرئيَّ وغير المرئيِّ... والحضور والغياب... وعالم الشهادة وعالم الغيب... فها هي ذي الجبال والطير تؤوّب مع داود... وها هم الجانُّ والشياطين يعملون بين يدي داود وسليمان عليهما السلام... بإذن ربهم...

ثم ها هو ذا التحدي الأكبر الذي يقف قبالة الإنسان مهما تعاظم علمه، واتسعت سطوته، وتفوقت قواه: الموت!! الذي لن يكون بمقدور أحد أن يقول له: لا... إنساً كان أم جنّاً: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]... إنه الفارق الحاسم بين العلم اليقيني الذي يستند إلى

الإيمان، والعلم الوضعي النسبي الذي لن يكون بمقدوره الإحاطة المطلقة بكل الظواهر والأشياء...

إنه استكمال للصورة القرآنية التي تلمّ في اللحظة الواحدة المغيّب والمنظور، والتي تقدّم تعليماً خطيراً بخصوص الجهد العمراني والحضاري عموماً... أنه ليس خاتمة المطاف... وأن لكل شيء نهاية، وأن الموت يقف للجميع بالمرصاد.

فها هو ذا النبيُّ الذي سُخِّرت له تلك الطاقات المدهشة يتعرض للموت... فلا يعرف بمصيره أحد من الإنس والجن، ولا تدلّهم على موته إلّا واحدة من أحقر الحشرات وأحطّها شأناً: دابة الأرض... ويعرف الجن حينذاك أن لو كانوا يعلمون الغيب ـ الذي هو من اختصاص الله جلّ في علاه ـ ما لبثوا في العذاب المهين.

وتلك هي إحدى معجزات القرآن... إنه لا يقف عند جانب واحد من الصورة أو الحالة التي يتعامل معها، وإنما هو يدير كاميرته على أطرافها جميعاً، لكي يقدّم رؤيته الموضوعية العادلة، التي جنحت بكل المذاهب الوضعية التي تحجرت عند جانب واحد من الصورة[١].

❀ ❀ ❀

ثم ها هي واقعة نقل عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين، بقوة العلم الذي يمكن ـ إذا أُحسن توظيفه ـ أن يحقق

---

(١) تمت معالجة هذه المسألة بالتفصيل في بحث (حول ثنائية الخطاب القرآني) من هذا الكتاب.

المعجزات: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٢].

ألا تلفتنا في هذا العرض عبارات كهذه ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾؟ ثم ألا يثير تساؤلنا تفوّق (الإنسان) الذي عنده علم من الكتاب على العفريت، وتمكّنه من اختزال عملية النقل من ست ساعات إلى سدس اللحظة؟ وربط سليمان إتيانه العلم من قبلها بكونه مسلماً، أي منقاداً لأمر الله وسننه ونواميسه؟ ثم ألا يعني هذا كلّه أن منح (علم الكتاب) لرجل أو عفريت أو نبي أو ملك هو اطلاعه على الدستور الرياضي والطبيعي لقوانين السماوات والأرض، ومن ثم تسخيرها إلى أقصى مدى ممكن لتحقيق منجزات زمنية ومكانية خارقة[1]؟

وفي أكثر من سورة يحدثنا القرآن الكريم عن التسخير الزراعي، والتجاري، والإداري، والعمراني، الذي عمّ خيره على أقوام وشعوب وجماعات شتى في جغرافية العالم، والذي أريد له

---

(١) ينظر عن هذه المسألة بالتفصيل بحث (القرآن والبعد الزمني) من كتاب (مع القرآن في عالمه الرحيب) للمؤلف.

أن يستهدي بتعاليم الله القادمة من السماء بواسطة الأنبياء الكرام، من أجل أن يتدفق العطاء ويتواصل ويعمّ خيره على الجميع، وأن الدمار الذي حاق به إنما هو بسبب إشاحة تلك الأقوام عن الاستجابة للنداء الإلهي، حيث ركبوا رؤوسهم واستغشَوْا ثيابهم، وأصرّوا على كفرهم وضلالهم الذي لا ينسجم بحال مع هذا الخير الوفير الذي أنعم الله به عليهم.

والجزاء، كما يقول المثل، من جنس العمل، فكان عاقبة كفرهم وشذوذهم أن تلقَّوا العقاب الذي أتى على بنيانهم من القواعد وجعلهم خبراً من الأخبار...

وتلك هي سنة الله في الخلق... واحدة من نواميس أو قوانين الحركة التاريخية، التي طالما خصّص لها كتاب الله المقاطع والسور الطوال...

ولنرجع إلى كتاب الله لنرى ما الذي يقول:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ
لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ
عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ
هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ
قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ
مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا
نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ
رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا
ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا
جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ
مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ
أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟
ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ
أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ
مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ
ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ
وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا
تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن
يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم

بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٥٠ ـ ٩٥].

ودائماً يربط القرآن الكريم بين فعل الإنسان وبين النتائج المترتبة عليه... وبين الدنيا والآخرة... ويضع حدّي المعادلتين في إطار واحد تذكيراً للقيادات البشرية بالمصائر التي ستؤول إليها إن لم تحسن التعامل مع سنن الله في العالم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠٣].

❀ ❀ ❀

وفي سورة يوسف نلتقي الخبرة الإدارية الحازمة التي تستهدي بنور الإيمان، والتي عرفت كيف تنقذ مصر من مجاعة الأعوام الطوال، وكيف تخرج بها إلى برّ الأمان: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا

كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٤ ـ ٥٦].

لقد وضع يوسف الصديق برنامجه المحكم لمجابهة سنوات الجفاف السبع، ذلك بأن أعلن: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧ ـ ٤٩].

* * *

أما سورة الشعراء فهي تنطوي على عرض بانورامي يلتقي فيه السياسي بالديني بالاجتماعي بالزراعي بالعمراني بالأخلاقي بالتجاري، في تصوير رائع ومؤثر عن تلك الأقوام التي أغدق عليها الله ﷻ الخير العميم، ولكنها لم تحسن التصرف فيه، وضلّت وأضلّت، وأصرّت على ضلالها وكفرها وفجورها، فما كان منها إلّا أن تتلقى الصفعة الإلهية التي تلغيها من الوجود، وتجعل منها شاهداً منظوراً على ما ينتظر هؤلاء من مصائر مفجعة بما صنعته أيديهم.

في كل سياق من السياقات آنفة الذكر: زراعية، تجارية، عمرانية... يقرّ القرآن الكريم الفاعلية ولا يلغيها، بمنحها أكبر مساحة ممكنة، لكنه يضبطها ويوازنها بالقيم والمعايير القادمة من السماء، من أجل التحقق بأكبر قدر من الفاعلية والتوازن والانسجام مع وضع الإنسان في العالم، ووظيفته الأساسية قبالة

الله ﷻ، وإخوته من بني الإنسان. والدلالات التي تتمخض عن هذا المنظور كثيرة، خصبة. منها أن الحياة الدنيا فرصة للعمل والإبداع، ولكنها ليست هدفاً نهائياً، وأن الإنجاز مطلوب؛ شرط ألّا يصل حدّ التكاثر بالأشياء الذي يقود إلى الطغيان والغفلة والفسوق والكفر، وأنه لا توجد أرجحية لفاعلية على أخرى، واحتقار لبعضها دون الآخر، فالمجال مفتوح إزاء سائر الفاعليات الحضارية، وأن جهود الأنبياء عليهم السلام متوحدة في أساسها وغاياتها الكبرى، ولكنها كانت متكاملة، ففي كل حلقة يتم التأكيد على جانب ما، وبتكامل الجوانب جميعاً تتحقق الحياة السعيدة العادلة.

إن القرآن الكريم يقدم، فيما سبق وأن أوردناه من شواهد، تأسيسات لعالم عمراني ينعم فيه الناس بالخير العميم، ويسهمون جميعاً في بنائه وتطويره وإدامته، في ظلال الإيمان الذي لا يشذ بأصحابه عن الطريق، فيندفعون، كما اندفعت كل الأقوام التي لم تستهدِ بنور الله، إلى الطرق المعوجّة، والأساليب الملتوية التي قادتهم في نهاية الأمر إلى البوار.

هذا ما أردت أن أقوله في كل كتاباتي عن الظاهرة العلمية التطبيقية في الحياة الإسلامية، وليس أبداً كما توهّم أحدهم باتّهامي بأني أدعو كما سماه هو، إلى (التكنولوجيا القرآنية) ... وشتّان...

وثمّة فرق كبير بين الحديث عن التأسيس القرآني للعلم التطبيقي، إذا أردنا فعلاً أن ننعم بحياة متوازنة آمنة وسعيدة، وأن نحمي أنفسنا من عدوان المعتدين، فيما نلحظه في المقاطع

القرآنية السابقة، وبين القول بأن في كتاب الله (تكنولوجيا قرآنية)... بهذا الأسلوب من المباشرة والفجاجة...

وعندما تحدثتُ عن البعد الرابع في التعامل القرآني مع الظاهرة العلمية، وهو (التطبيق)، أوردت في بداية المقطع الفقرة التالية ذات الدلالة الواضحة فيما نحن بصدده:

«في الاتجاه الرابع نطالع في القرآن الكريم دعوة ملحّة في أكثر من موضع إلى اعتماد حقائق العلم وكشوفاته لتطوير الحياة وترقية الحضارة البشرية بمزيد من التطبيقات (التقنية) على كافة المستويات. وهو موقف يتميز بالشمولية والديمومة، إذ هو دعوة للإفادة من الحقائق العلمية (الراهنة) في مدى كل عصر، لإحداث تطبيقات على مستوى العلاقات (المدنية) لذلك العصر.

فإذا ما حدث وأن تغيرت الحقائق العلمية، وتبدلت العلاقات المدنية، كان بمقدور النداء القرآني أن يمضي لكي يخاطب كل جيل من أجل أن يتحرك لإحداث تطبيقات أخرى على مستوى الحقائق الجديدة ومن خلال العلاقات المتغيرة»[١].

وهو الأمر نفسه الذي تم التأكيد عليه في خاتمة كتابي (حول أصول تشكيل العقل المسلم)، والتي تحمل عنوان (نحو تكنولوجيا إسلامية) جاء فيها:

---

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت ــ ١٩٨٣م، ص ٢١٧.

«إن الدعوة لقيام مجتمع إسلامي (تكنولوجي) وبدء عصر (تكنولوجيا إسلامية) إنما هو استمرار طبيعي لموقف الإسلام، المفتوح من معطيات العلم في آفاقه، واستكمالاً للدعوة إلى إعادة تشكيل العقل الإسلامي، من أجل أن يكون أكثر قدرةً على استيعاب المتغيرات وتطوير الحياة الإسلامية وحمايتها ـ في الوقت نفسه ـ من التفكك والعدوان. إن (التكنولوجيا الإسلامية) التي ترتبط ـ بطبيعة الحال ـ بخلفيتها الإيمانية، تعدّ ضرورة ملحّة، ليس فقط على مستوى الجماعة الإسلامية نفسها، ولكن على مستوى البشرية عامة، لأنها ستعرف كيف تتحرك وتنضبط على هدي القيم الدينية والإنسانية القادمة من عند الله، فتكون حقّاً في خدمة (الإنسان)، الذي عانى الكثير من تكنولوجيا الكفر، والعرقية، والطبقية، والأنانية، والعصيان».

«إن على العقل المسلم الجديد أن يأخذ بتلابيب الطاقة التي كشف عنها النقاب، والقوانين العلمية التي تحيل الطاقة إلى حركة وفعل وتطبيق وإبداع... أن يمسك برقبة الزمن فيضيفه إلى المادة لتحقيق اللحاق بمسيرة الخصم، والسبق عليه، ما دامت قيم هذا الدين تؤكد بإلحاح على فكرة الزمن، وعلى أن المؤمن الحق هو الذي يعرف كيف (يسارع) وكيف (يسبق)»!!

«وسواءٌ شئنا أم أبينا، فنحن ـ أولاً وأخيراً ـ مسؤولون عن هزائمنا العقيدية، وانحطاطنا السياسي، وتخلُّفنا الحضاري، ومرفوضة كل محاولة تسعى إلى اتخاذ ممارسات الأمم والجماعات الأخرى

مشجباً لتعليق هذه الهزائم وتبريرها، ولن ينقذنا إلّا فعلنا الخاص، ولن يعيدنا إلى موقعنا المتقدم إلّا تحمُّلنا الكامل لمسؤوليتنا...»

«والمفاتيح عندنا، أولاً وأخيراً. فإن لم نصل اليوم الذي نبني فيه (مختبراتنا) ونشغلها بعقولنا... ونصنع سلاحنا ونستخدمه بأيدينا... إن لم نُعِدْ تشكيل عقولنا لكي (تعمل) كما أراد لها الإسلام أن تعمل، فلن تكون لنا خارطة أو مكان في هذا العالم، ولن يكون بمقدور ألف سنة أخرى من الاتكالية وصور التعبد والذكر القائمة أن تصنع المعجزة... ذلك هو التحدي الحقيقي الذي يقف قبالتنا صباح مساء، وهذا هو طريق الاستجابة المرسوم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ... هذا هو الجواب»[1].

وهو نفس ما ذهب إليه المفكر المصري المعروف (محمد جلال كشك) (رحمه الله) في كتابه القيم (طريق المسلمين إلى الثورة الصناعية).

نكون أو لا نكون... تلك هي القضية... كما يقول أحد أبطال شكسبير...

فإما أن نحصّن أنفسنا وندافع عن مقوّماتنا باستخراج الحديد... وكل خامات الأرض... وتصنيعه لأغراض السلم والحرب، كما نصت الآية (٢٥) من سورة الحديد، وإما أن نغدو، وقد

---

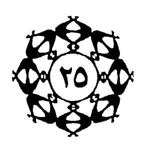
(١) حول تشكيل العقل المسلم، ط٣، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، الكويت ـ ١٩٨٩م، ص ١٤٨ ـ ١٥١.

سحبنا أيدينا وعقولنا من فيزياء العالم؛ القصعة التي يولم عليها المولمون!! وقد كان...

إما أن نمضي لاستلهام الخطاب القرآني في كل صغيرة وكبيرة في حياتنا المعاصرة، وإما أن نغمض أعيننا ونستريح... ويلاحق بعضنا بعضاً بجملة قيلت هنا، وعبارة وردت هناك، متغافلين عن حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)...

فلا حول ولا قوة إلا بالله!!





الفرح الكوني

من أين يبدأ الإنسان وهو يتحدث عن السماء الكبيرة... عن الفضاء اللانهائي... عن الفرح الكوني، الذي منحه هذا الدين للمنتمين إليه؟!

من أين يبدأ والبوابات الكبرى مشرعة أمامه، كل منها يناديه أن يجتازها لكي يجد نفسه إزاء العالم... والكون... كما أراد الله لهما أن يكونان.. في تركيبهما المدهش... في طبقاتهما التي يعلو بعضها بعضاً، وفي انفتاحهما على الحقيقة، والمعرفة، والجمال؟!

من أين يبدأ... وهذا الدين جاء لكي يحرر الإنسان من كل صنوف الطاغوتيات والحتميات والأسر في المحدود... ويبعثه حراً طليقاً في مواجهة العالم... فوق العالم... قبالة الفضاء الكوني الذي لا تحدّه حدود؟

لعل البداية الحقيقية تقودنا إلى نقطة الانطلاق التي تشكل هذا الدين وفق مقولاتها المدهشة: الغار... وهزة الوحي... ورحلة الإسراء والمعراج...

إن البعد الروحي هو ـ بلا شك ـ أشدّ الأبعاد ثقلاً وخطراً في

حياة الإنسان، والروايات القليلة التي تحدثنا عن عزلة الرسول ﷺ، في غار حراء، بعيداً عن صخب مكة وضجيجها، حيناً بعد حين، وعن انقطاعه إلى الصحراء وحيداً، متأملاً، باحثاً، منقّباً، مقلّباً وجهه في أرجاء السماوات والأرض... هذه الروايات تكفي لالتقاط الإشارة الأخيرة للصورة التي علينا أن نعرفها عن حياة الرسول ﷺ قبل مبعثه.

فكما علّمه الانشقاقُ الأخلاقيُّ عن الوضع المكيِّ القدرةَ على الرفض والتمرّد، فقد جاء تغرّبه وعزلته وانقطاعه إمداداً نفسياً باتجاه آخر، لكنه متمِّم، وبدونه لا يمكن لإنسان ما أن يمارس دوره الحاسم الكبير... إنه إمداد باتجاه الاندماج والاتصال، بمواجهة رفض الجاهلية والتمرُّد على قياداتها وأعرافها وسلطاتها... اندماج بالكون على انفساحه... بالعالم الجديد الذي جاء لكي ينقل البشرية إليه، بالنواميس التي سيُبعث عما قريب كي يجعل الإنسان في كل مكان وزمان يعود إليها، وينسجم في مساراتها المعجزة، مغادراً مواضعه المنحرفة، الخاطئة التي ساقته إليها زعامات جائرة، وسلطات مستبدة، وألوهيات زائفة، وأعراف وبيئات مليئة بالدنس والوحل والخطيئة، واتصال ـ عبر البحث والقلق والتقلب الطويل ـ بالسلطة الواحدة التي تشرف على الكون، وتحرِّك الإنسان والخلائق في ساحاته الكبرى، وفق خرائط غاية في الدقة والإتقان... اتصال بالمصدر الوحيد للحيوان والأشياء، بالإرادة التي تنبثق عنها سائر الإرادات وتؤول إليها... بالله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

إن عزلة رسولنا ﷺ وانقطاعه، واتساع مساحات هذه العزلة والانقطاع، عكساً إزاء طغيان الجاهلية، وطرداً تجاه يوم الوحي؛ كانت بمثابة الإرهاص الأكبر والأخطر والأخير، في الوقت نفسه، إلى أن موعد القطاف قد حان، وأن هذه الشخصية التي ربَّتْها عناية الله في مدى أربعين سنة، قد غدت على استعداد تام للتلقي، والاتصال المباشر بمبعوث الله، في آخر حلقة من حلقات تعاليم السماوات للأرض!!

❁ ❁ ❁

في رمضان من السنة الأربعين من عمره، خرج محمد ﷺ كعادته إلى غار حراء متأمّلاً متفكّراً مقلّباً وجهه في السماوات... وفي ليلة اثنين من الليالي الأخيرة من الشهر نفسه جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى. ولنستمع إلى رسولنا ﷺ يحدثنا بنفسه عن تجربة لقائه الأول الحاسم مع مبعوث الله:

«فجاءني جبريل بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ فغتّني به (أي عصرني عصراً شديداً) حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أقرأ؟، فغتّني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت ماذا أقرأ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلّا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع. فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] فقرأتها، ثم

انتهى فانصرف عني، وهببتُ... فكأنما كتبتُ في قلبي كتاباً، فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل!! فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك. فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثَتْ خديجة رُسُلَها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذاك. ثم انصرف عني. وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيتُ خديجةَ فجلستُ إلى فخذها مضيفاً إليها. فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا أعلى مكة ورجعوا إلي. ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يا بن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة»[1].

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، دار المعارف، القاهرة ـ ١٩٥٩م، ١٠٨/١ ـ ١١٠، ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام، ط٢، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ـ ١٩٦٤م، ص ٤٦ ـ ٤٧، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة ـ ١٩٦١ م ـ ١٩٦٢م، ٢٩٨/٢ ـ ٣٠٢، البخاري: التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، ط٢، دار الإرشاد، بيروت ـ ١٣٨٦م، ٥/١.

وقد رأى بعض الصحابة ـ فيما سيتلو من أيام ـ رسولهم ﷺ وقد ظهرت وبدت عليه علائم نزول الوحي، ورأوه وقد نزل عليه الوحي واشتدّ به، وقد أجمعوا كلهم على أنه كان يعاني في أثنائه شدة وصعوبة، يبقى على ذلك ما شاء الله، فلا يهدأ ولا يذهب عنه الروع إلا بعد انتهاء الوحي، فيجلس عندئذ وقد تصبب عرقاً، يجلس ليرتاح ويجفف عرقه، ثم يتلو على من عنده من أصحابه ما وعاه وما حفظه من الوحي. فإذا فصم عنه كان قد وعى كلَّ ما قاله الملك له وحفظه لا يذهب عنه حرف[(١)].

انطلقت خديجة (رضي الله عنها) إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة: «قدوس، قدوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنتِ صدقتِني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبيُّ هذه الأمة فقولي له فليثبت».

فرجعت خديجة وأخبرت محمداً عما قاله ورقة، فذهب بنفسه إليه، وطلب ورقةُ منه أن يعيد حديثه، فلما أتمّه قال ورقة: والذي

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة ـ ١٩٣٢م، ٢١/٣ ـ ٢٢، جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية)، مطبعة الزعيم، بغداد ـ ١٩٦١م، ص ١٣٤ ـ ١٣٥، محمد عزة مدة سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم، ط٢، مطبعة عيسى البابي، القاهرة ـ ١٩٦٥م، ١/١٢١ ـ ١٤٦.

نفسي بيده، إنك لنبيُّ هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتُكذبَنّ ولتُؤذَيَنّ ولتُخرَجنّ ولتُقاتَلنّ! ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ اللهَ نصراً يعلمه. ثم أدنى رأسه منه فقبّل يا فوخه. وعاد الرسول إلى منزله(١).

❁ ❁ ❁

هذه هي الضربة الأولى التي فتحت بوابات الكون، والطريق إلى عالم الغيب أمام نبيِّ الإسلام... ولسوف يلحق به عما قليل ثلة من أصحابه الكرام، وهم يتلقَّوْن عن طريقه خطاب السماوات للأرض... وكلام الله ﷻ للمؤمنين الذين سيُقدّر لهم أن يشكلوا أمة من الناس أُقيم بنيانها على أساس من هذا اللقاء الحميم بين الوحي والوجود...

ثم ما لبثت الضربة الكبرى الثانية أن جاءت بعد عدة سنين، لكي تأخذ نبيَّ هذه الأمة في رحلة مدهشة إلى المسجد الأقصى، ثم ما تلبث أن تعرج به إلى السماء...

ولقد كان هذا الحدث الكبير يحمل ـ منذ لحظاته الأولى ـ مغزاه الواضح على التوجه الكوني لهذا الدين... رفض الأسر في حيّز العالم الضيق والانحسار في فضائه القريب... والانطلاق بعيداً في المدى، حيث تتساقط الحواجز وتذوب الفواصل ولا تكون

---

(١) ابن هشام ص ٤٨، الطبري: ٢٩٨/٢ ـ ٣٠٢، البلاذري: ١١١/١، البخاري: تجريد ٦/١.

الأمكنة والأزمنة التي قطعتها المذاهب والأديان سوى مكاناً واحداً وزماناً موصولاً أريد لهذا الدين أن يضع الإنسان في ساحته الكبرى، ويدفع به في مجراه الذي يصل بين الأبدية والخلود.

لقد قالها الفاتحون الذين خرجوا لممارسة مهمتهم التحريرية في العالم: «جئنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها...».

إن انفكاك رسول الله ﷺ من الارتباط بالأرض ومضيّه صعداً صوب الأعالي، لهو واحد من المؤشرات التي ستتأكد تاريخياً فيما بعد. فلم تكن مهمة المسلم في العالم، ولن تكون سوى المضيّ بالإنسان صعداً، وتحريره من كل ما من شأنه أن يصدّه عن أن يكون في حالة تقابل فعّال مع السماوات!!

إن المذاهب الوضعية تضع الإنسان حيناً في دائرة الحسّ، وحيناً في رغبات الجسد، وحيناً في مطالب الجغرافيا أو البيئة أو الطبقة... ولكن ها هنا، في دائرة الفعل الإسلامي، فإن الإنسان يراد له أن يتحرر، يطلب منه أن يتحرر من هذا كلّه، وذلك بحدّ ذاته كسب لا يعدله كسب: لأننا ها هنا سنكون بإزاء الإنسان الكوني الذي يكون كفاء مهمته في العالم وخلافته في الأرض.

إن الوضعيات البشرية والكهنوتيات المحرّفة للأديان، مزّقت الإنسان وأقامت بين أشلائه وتفاريقه الحواجز والأسلاك الشائكة، وكان مردود ذلك، وسيظل، مزيداً من التعاسة والتمزق والشقاء... أما هنا، حيث يكون حدث الإسراء والمعراج الكبير، تأكيداً للتوحد البشري بين الروح والجسد، فإن الوئام النفسي يبلغ مداه في دين

أريد له أن يحمي وحدة ابن آدم من التشتت والتبعثر، وأن يدفع بها في قلب العالم أكثر توحداً وسعادةً وائتماناً... وأكثر، بالتالي، قدرة على الفاعلية والعطاء...

إن أحدث النظريات في مجالي التشريح والفيزياء الذرية، على وجه الخصوص، فضلاً عن فلسفات العالم في أكثر عروضها جدة وحداثة، تؤكد أكثر فأكثر، انفتاح المنظور على الغيب، الظاهر على الباطن، وتشير أكثر فأكثر، إلى لقاء محتوم، تحقق أو هو في طريقه إلى التحقق، بين الروحي والمادي. ويكفي أن نقرأ ما كتبه علماء كبار كآينشتاين وجينز وكاريل وسوليفان وأغروس وستانسيو واريك فروم، لكي يتبين لنا هذا، بل ما هو أكثر من هذا: إن مكونات الذرّات الخفية التي لا تراها العيون، تملك قدراً من الوعي الحرّ الذي يدفعها إلى التسبيح للخلاق الذي فطرها، بلسان الحال أو لسان المقال... سبحانه وتعالى..

وإن هذا الكون في صفحته الظاهرة ليس سوى تعبير مؤكد على عقل مركزي فعال هو الذي يصّمم ويصنع ويخلق، ويحيل الكتل الصماء إلى تصاميم صالحة لاستقبال الحياة، قديرة على إعانة الإنسان على مواصلة سعيه الهادف في هذا العالم.

❁ ❁ ❁

أفلا يكون إسراء رسولنا ﷺ ومعراجه إلى السماء، مباركة وتزكية لهذا اللقاء الذي سيقدّر له أن ينكشف بعد قرون من تحققه كحدث معجز يصعب تبيّن أبعاده للوهلة الأولى؟!

إن رحلة رسول الله ﷺ كانت بمثابة اكتشاف كوني للسنن والنواميس الإلهية التي تصنع الأشياء وتسيّر الموجودات وتسوق العالم إلى مصائره وفق أشد الطرق استعصاء على التعامل المسطح ذي المنظور الأحادي، والنزعة المستسلمة التي لا تبحث ولا تنقّب ولا تسعى إلى الكشف عن السرّ المكنون.

إن الفعل الحضاري هو في أساسه ممارسة اكتشافية، وأنه لا حضارة بدون عقل توّاق للبحث والاكتشاف والتنقيب... بل، وأقولها متردداً، بدون مجازفة أو مغامرة كونية... فإن الحضارات تصنعها فضلاً عن الكشوف، المغامرات الكبيرة التي لا بدّ أن يضحَّى من أجلها بالدعة والأمان!

لقد صنع المسلمون، فيما بعد، حضارتهم المتفوقة بكل المقاييس... ولكن اللبنة الأولى... حجر الزاوية، يتحتم أن نبحث عنها هناك في كتاب الله وسنة رسوله، وفيما يحدثنا عنه كتاب الله وسنة رسوله من رحلة كهذه الرحلة، التي أتيح للرسول عليه السلام أن يكتشف بها المجاهيل.

إنني لأتذكر هنا، ملزماً نفسي بالإيجاز، واحدة فحسب من هذه الاكتشافات، حيث يقول الرسول ﷺ وهو يتحدث عن سدرة المنتهى «لقد غشيتني ألوان لا أدري ما هي»... وأتذكر معها ما يقول العالم الأمريكي المعاصر (كريسي موريسون) من أن أجهزتنا الحسية، ها هنا في هذا العالم، مهيأة فقط للتعامل مع مقادير محدودة من المرئيات. أما هناك، فإنها تُمنح بقوة الروح

الخالدة مساحة أوسع للاستقبال، فتكون الألوان التي لم يدر رسول الله ﷺ كيف يصفها لأصحابه، لأنه لم يجد اللغة التي تنقلها إليهم.

إن رسول الله ﷺ الصادق الأمين، الذي رفضته قوى الشر في كل شيء وعلى كل مسار إلا في هذه: صدقه المطلق: إنه ينقل، في أعقاب رحلته المتفرّدة هذه حدثاً ليس كالأحداث. وكما أن على المرء أن يكون قبالة الله مؤمناً أو كافراً، إذ ليس ثمّة من موقف وسط، فإننا ها هنا إزاء هذا الصوت الكوني العائد من الرحلة الكبرى، يتحتم أن نكون مؤمنين بصدقه، وإلا فإننا، وحاشا لله، لن نظل لحظة واحدة في دائرة الإيمان.

لقد سُمِّي الصدّيق أبو بكر رضي الله عنه (صدّيقاً) لأنه كان أول من أدرك المغزى الأخلاقي العميق للخبر العجيب، وكان تعليقه الذي عبّر بدقة بالغة عن هذا البعد، قوله المعروف: إننا كنا نسلّم بخبر السماء، يأتيه عن طريق الوحي، أفلا نصدّق بخبر هذه الرحلة التي هي جزئية فحسب من جزئيات الخبر المدهش الكبير؟!

ومع الصدق المطلق، ثمّة ما يحمل قيمته التي لا تقل أهمية في دائرة الأخلاق... إنها البطولة!!

البطولة الفذة الطموحة، التي أريد لها أن تتجاوز تحديات العالم صوب الكون، وأن تسعى لتغيير التاريخ وإعادة تصميم الحياة بما يجعلها أكثر سعة وتحرراً وتوحداً وامتداداً.

وإذا كان الرسول ﷺ قد تلقّى، لحظة إسرائه، تذكرة عبور



للعالم وصعود للسماوات العليا، فيما منحه الفرح والسعادة بمواجهة، أو فوق، كل الأحزان والمرارات التي حاصرته وعذبته طويلاً... فإنها ستظل التذكرة نفسها التي ستعبر بالبشرية كلها، تخوم العالم الضيق إلى الكون، وتمنح الإنسان في كل زمن ومكان، الفرح والسعادة التي تعلو به على الأحزان والمرارات، وتفكّه من أصفاد الحصار والعذاب... وما أكثرها وأمرّها!!

بعد هذا يجد الإنسان المسلم نفسه مطالَباً، من أجل التحقق بالسقف العالي لإيمانه، بأن يمارس الرحيل اليومي عبر اتجاهاته الأربعة: رحلة يومية مع الماضي... مع التاريخ الكوني والبشري من أجل إغناء حياته بالمزيد من التجارب والخبرات... ورحلة يومية صوب المستقبل البعيد... باتجاه الأبدية... حيث الاطمئنان والتوحد والأمل... وحيث يصير الموت مجرد نقلة للعبور، فيما يفسر لنا ذلك التأثير العجيب في تعامل الفاتحين مع الموت، وقدرتهم المدهشة على تغيير خرائط العالم... ورحلة يومية في المكان... في الطبيعة والعالم والكون.. الغبطة والفرح والامتداد والألفة الميتافيزيقية مع الوجود... وهو يتذكر انحناءة الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) على شجرة ورد ومخاطبته إياها: (ليتني شجرة تُعضد)، ووقوفه المؤثر أمام جبل أحد ومخاطبته إياه: (أحد جبل يحبنا ونحبه)!! ورحلة يومية ذات طابع عمقي في الروح والوجدان لتعميق الخبرة، واستجاشة الطاقة البشرية ما وراء الحسية، وإغناء الحياة... منحها الملح والطعم واللون والرائحة!!

فأيُّ دين أو عقيدة أو مذهب، غير هذا الدين، فتح على الإنسان هذه البوابات الكبرى الأربع لكي يتحقق بوجوده كإنسان؟!

باختصار شديد، لقد أراد الإسلام أن ينشئ، ويبني، إنساناً كونياً بمعنى الكلمة... يتجاوز الأرض إلى السماء، وضيق الدنيا إلى سعتها، وعبادة العباد إلى عبادة الله وحده، والحسّ والغريزة إلى العقل والروح، والإقليم والعرق والطبقة والجغرافيا واللون، إلى فضاء الإنسانية الرحب... وشدّ الأرض إلى التحرُّر منها، والارتباط بالقريب الملاصق إلى الآفاق البعيدة... والأسر في الزمن الأرضي إلى الزمان الكوني بمعاييره الكبرى... والفناء والتآكل إلى الاستمرارية والخلود... والفوضوية والعدمية والعبثية إلى النظام والأمل والجدوى... والحراك على نقطة محددة في الزمن إلى التاريخ على تشعبه وامتداده...



إننا هنا بصدد **وحدة تاريخ الرسالات،** حيث يمثل الإسلام مظلة حب ولقاء لكل الأنبياء عليهم السلام... وهكذا فإن الاعتزاز بكل نبوة، وبمعطياتها الأصيلة، واعتبارها رصيداً إسلامياً، يمنح الإنسان فرحاً وانتماءً من نوع خاص... وهذا بعدٌ ممتدّ في الزمن والمكان... مستشرف آفاق الكون والحياة والوجود، سيّما وأن دعواتهم جميعاً تتمحور عند كلمة الله، وتوحيده المطلق، والانتماء الصادق للكون والروح والخلود: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ

ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٢].

إن التوحيد الذي بلغ صيغته المثلى في هذا الدين، ليمثل منطلقاً للحقيقة الكونية، التي تشهد بكل تفاصيلها بـ **(لا إله إلا الله)**... وتحرّر الإنسان من الصنميات والطاغوتيات وكل صنوف القسر والابتزاز، وتعينه على بناء عالم جميل، متناسق، سعيد، خال من المخاوف والأحزان...

إنه التحرّر من ضغوط الكتلة، وإطلاق فاعلية الحواس في التعامل مع العالم والطبيعة والكون... والتأكيد على «الجمالية» وانعكاساتها في المعطيات الأدبية والفنية... وتسخير السماء والطبيعة لسعادة الإنسان... والدعوة الملحّة للتفكّر في خلق السماوات والأرض، والتأكيد على حقيقة البعث المتجدد، واعتبار الحياة مرحلة فحسب في رحلة طويلة ممتدة... والتعامل مع الموت، كنقلة إلى حالة أفضل وأكثر دواماً... إلى الأبدية والخلود... ومنح الروح أفراحها المتوهجة الدائمة في الدنيا

والآخرة... وتجاوز الهمّ والحزن... الارتفاع على المخاوف والأفراح المنصرمة العابرة... البحث عن الفرح الأكثر عمقاً وامتداداً ودواماً... اعتبار الروح هي القيمة الأكثر فاعلية وثقلاً في الكينونة البشرية... الامتداد في الزمان... في التاريخ... في العمق الزمني للكون... حيث وحدة النبوات والجماعات المؤمنة... الامتداد في المستقبل على الأرض وفي اليوم الآخر... الامتداد في المكان... في العالم... في الطبيعة... في السماء القريبة... في الكون البعيد... في الجنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض... التحقق بالثواب الكبير وبما ينطوي عليه من دلالات الفرح الذي لا تستوعبه مفردات القواميس: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٧٤ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٣ ـ ٧٥]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٣]. وصولاً إلى حالة الفرح القمة، حيث النظر إلى الله جلّ في علاه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

❁ ❁ ❁

إننا كمسلمين نتفوق على الآخرين بإيماننا اليقيني الثابت بأن هذا الكون يقوم على طبقتين وليس طبقة واحدة كما يرى الملاحدة والعلمانيون: الشهادة والغيب... الظاهر والباطن... المنظور والمغيب... بل إن الغيب هو الذي يمثل المساحة الأوسع من الوجود الكوني، حيث تبدو الظاهرة ككتلة الجليد المغيبة في مياه البحار والمحيطات، والتي لا يظهر منها سوى العشر، وتبقى الأعشار الأخرى مخفيّة تحت الماء.

إن إيماننا بالغيب يمنح حياتنا البشرية خصباً وامتداداً... فضلاً عما ينطوي عليه من صدق وواقعية في التعامل مع بنية تشمل في حقيقتها الطبقتين معاً، فتتجاوز بذلك، ليس التضحّل فحسب، وإنما الكذب والخطأ والتخبط... وطالما عجز الإنسان عن الإحاطة علماً بالطبقة الثابتة هذه، فجاءت الأديان لكي تلقي الضوء على أبعادها الحقيقية، وتمنحنا المقدار، والنسبة الذهبية، المعطاة من عالم الغيب للتعامل الأمثل مع العالم، وفق مطالب الاستخلاف والتسخير والاستعمار (بدلالته اللغوية لا الاصطلاحية): ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [هود: ٦١]. ها هنا يكمن الفارق الحاسم «حضارياً» بين الإسلام والمبادئ الوضعية والأديان المحرفة.

❁ ❁ ❁

إن هذا الدين فرصة ذهبية... كنز يعد بألف عطاء وعطاء... وان علينا أن نعيش التجربة عمقاً وطولاً وعرضاً... أن نفرح بها ذلك **الفرح الكوني الكبير** الذي تحدثت عنه كلمات الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

الفرح الذي يوازي حجم هذه العقيدة، والذي يأخذ الإنسان المسلم إلى واحدة من أروع الرحلات عبر مسالك الحياة لكي ينتهي به عند الخلود.

الفرح الذي تبدو ازاءه كل أفراح البشرية، العابرة، السريعة، المنصرمة، بقعاً منحسرة في الزمن والمكان، لا تخلّف سوى الحزن والتعاسة والندم والشقاء: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣]، ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٣ ـ ٧٥]، ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

إن هذا الدين يريدنا أن نتجاوز الزائل إلى الدائم، والفاني إلى الخالد، والنسبي إلى المطلق، والمنحسر إلى اللامحدود... إنه يريد أن يخرجنا من أسر المتغيرات والنسبيات والتناقضات، ومن دوامات الاصطراع بين الأفراح والأحزان... إلى حالة من الفرح الكبير الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا يزول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ

ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

إنه الخروج الكبير الذي تحدّث عنه الفاتحون وهم ينطلقون إلى العالم لإعادة صياغته من جديد... «الله ابتعثنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده» والذي أطلق عليه كتاب الله: الخروج من الظلمات إلى النور: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ [الطلاق: ١١]... كسرٍ لقشرة العالم الصلبة... وتجاوز الانحسار في الأرض، والتخبط في الحفر الضيقة والطرق المعوجّة... إدانة للالتصاق بنداءات الحسّ، حيث تصير الحياة البشرية كحياة العجماوات والأنعام: تأكل وتتزاوج وتنام!!

في السعي لتشكيل الحياة الإسلامية الحقة، نجد كيف أن الإسلام يقدم تأسيسات أو شروط عمل لوضع المسلم في صميم الفاعلية الحضارية، وكيف أننا كمسلمين لا نقلّ امتلاكاً للشروط عن أشد الحضارات المادية فاعلية في العالم... لكن هذا لا يعدو

أن يكون واحداً من صيغ تشكيل الحياة الإسلامية، بل هو مجرد وسيلة لهدف أعلى وأكثر انفساحاً، إنه العبادة بمفهومها الكوني الشامل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧].

هذا يتمخض عن انفساح الأفق أمام الإنسان المسلم في العمق والطول والعرض... تجاوز الراهن إلى الخلود... الرحيل في المكان إلى حافات الدنيا... باختصار إنه وضع الإنسان في حالة كونية مفتوحة، هي نقيض الدنيا الضيقة التي قال الفاتحون أنهم جاؤوا لكي يحرروا الناس منها... يخرجوهم من أسرها.

إن الإسلام يعني التسليم لأمر الله، ووضع الإنسان في حالة وفاق مع الخلق في سياقاته كافة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٢ ـ ٦٣].

والآن فإننا إذا جزّأنا تجربة الحياة، وتعاملنا مع كل جانب منها على انفراد ـ وهذا مستحيل ـ فإن الإسلام يوازي في كل واحدة من هذه الجزئيات سائر التجارب الأحادية ويتفوق عليها، تماماً كما يحدث في بطولات الساحة والميدان: العقل في أقصى حدود الاحتمال ... الروح في أشدّ حالاتها توتراً... الجسد في أقصى حالات توازنه وفاعليته وإشباعه.

وإذا تعاملنا مع تجربة الحياة كوحدة متكاملة، فليس ثمّة كالإسلام في قدرته على احتواء الخبرة، في شموليتها وتفاصيلها،

والتعامل معها وفق أكثر الصيغ توافقاً وانسجاماً مع حيثيات الحياة... ونتذكر ها هنا معضلة التفريق في المذاهب والحضارات الأخرى بين العقل والروح والجسد... وربما أخطأ المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي) في تصنيفه للحضارات.

وإذا أحلنا التجارب الأخرى الدينية المحرّفة والوضعية على الإسلام؛ نجد كلّاً منها قد قطعت خطوات في قناة أو ممر واحد، بينما مضى الإسلام لكي يقطع الطريق عبر شبكة القنوات والممرات جميعاً فيحقق التفوق في كل منها.

إن المساحة التي يمنحها الإسلام لحركة الإنسان في العالم لهي أكثر عمقاً واتساعاً ـ بما لا يقبل نقاشاً ـ من أية مساحة منحتها أية عقيدة أو دين أو فكرة... إننا بذلك نتعامل مع أخصب وأعمق فرصة منحت للإنسان في تاريخ البشرية.

إننا إذا جئنا لاستقصاء مفردات الفرح بكل دلالاته، في كتاب الله، فلسوف نجد أنفسنا إزاء منظومة خصبة لم تبلغ الأديان المحرّفة ولا المذاهب والنظريات الوضعية عشر معشارها... وإليكم بعض شواهدها (الانشراح ٤ مرات) (الأمل مرتان) (الأمن ٢٠ مرة) (الرحمة ٣٣٤) (الرغد ٣ مرات) (الزينة ٤٦ مرة) (السكينة ٣٥ مرة) (القسط ٢٧ مرة) (القصد ٥ مرات) (الاستقامة ٣٧ مرة) (النعيم ٩٠ مرة) (الحب ٨٤ مرة) (الحبور مرتان) (الشفاء ٨ مرات) (السلام ٥٥ مرة) (الاطمئنان ١٣

مرة) (الغفران ٢٣٥ مرة) (الفلاح ١٤٠ مرة) (الفوز ٢٧ مرة) (النور ٥٠ مرة) (الهدى ٣٢٥ مرة) (اليسر ٤٠ مرة).

في ضوء ذلك كله تبدو المجتمعات الإسلامية على مدار التاريخ، ورغم ما عانته من انكسارات سياسية، وهجمات شرسة، واستعمار عاتٍ، أقل المجتمعات تعرضاً لحالات الاكتئاب، واليأس، والغمّ، والإحباط، والشذوذ... والبحث عن الطرق المعوجّة للتحقق بالفرح والانشراح: كالخمر والمخدرات والشذوذ والجرائم المنظمة، وصولاً إلى المغيِّبات... والانتحار.

وأمامي الآن إحصائيات نشرت على الفضائيات في عامي (٢٠١٠ و٢٠١١م) إحداها تقول أن عشرة بالمئة من الأمريكيين يعانون من حالات الاكتئاب المركز الذي يقود بعضهم إلى الانتحار. والأخرى تقول بأن الحكومة اليابانية خصصت مبلغ ثلاثين مليار دولار لملاحقة وتحجيم حالات الاكتئاب والانتحار هناك... أما ما تشهده الساحة الاسكندنافية، حيث تبلغ الحضارة المادية قمتها في التكنولوجيا والخدمات والتقدم العلمي، فأمر يعرفه الجميع عن نسبة الانتحار المتزايدة التي يمارسها الإسكندنافيون.

هذا ما يجري صباح مساء في أرقى دول العالم مدنية وتقدّماً... الأمر الذي دعا كبار فلاسفة القوم هناك، ومفكريهم وأدبائهم وإعلامييهم وساستهم... إلى رفع أصبع التحذير من المصير المفجع الذي تقود إليه حضارة رفضت ـ ابتداء ـ الإيمان بالله والغيب واليوم الآخر... وقتلت إنسانية الإنسان... واغتالت أنبل

ما يملكه مما يعينه على مواصلة الحياة: منظومة القيم الخلقية والدينية والإنسانية.

وها هو ذا هيرمان هيسة وجون شتاينيك وكونستانتان جيوروجيو وآرثر كوستلر وستراتيشي وكولن ولسون وأرنولد توينبي واشبنغلر وبرناردشو وبيرتراند رسل وروجيه غارودي ومراد هوفمان ومارسيل بوازار وأريك فروم وأغروس وستانسيو... وغيرهم كثيرون... كثيرون جداً، يحكون لنا في أعمالهم عن المأساة التي تحيق بإنسانية الإنسان في ديار الغرب، والتي امتدت نارها إلى العالم كلّه، لأن قيادتها أضحت منذ زمن بعيد بأيدي فاجرة، كافرة، لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وتسعى في الأرض علوّاً وإفساداً...

ليس هذا فحسب، بل إن كل المنظومات الفكرية والعقائد الوضعية راحت تتساقط الواحدة تلو الأخرى، بعد إذ عجزت عن منح الإنسان (الفرح)، الذي به وحده يمكن أن يواصل الحياة، ويستشعر طعمها العذب، ويأمل بالفوز الكبير على ما بذله من جهد وما قدمه من تضحيات.

القوميات الشوفينية العدوانية... نظرية تفوق الرجل الأبيض... الوجودية... الشيوعية... الاشتراكيات الطوباوية... ثم الرأسمالية التي تعاني الآن من اختناقات مدمرة... والأديان المحرّفة التي أخذت فضائح كبار رجالاتها تزكم الأنوف.

وها هو ذا (أريك فروم) في كتابه الشهير (الإنسان بين الجوهر والمظهر) يؤكد حقيقة أن الحضارة الغربية المعاصرة،

بتشبثها بمبدأ التكاثر بالأشياء، وعبادة القوة، والصنمية العلمية... أغفلت جوهر الإنسان... أي روحه، وطمست عليه فقادته إلى التعاسة والشقاء...

إن مستقبل العالم، بوضعه الراهن هذا، مظلم ومعتم... وإن المصير البشري إذا لم يُمنح الأمل بالفرح الكوني... بالإيمان بالخالق جلّ في علاه... وبحياة أبدية أخرى غير هذه الحياة السريعة المنصرمة التافهة... فإنه سيضيّق الخناق أكثر فأكثر على الإنسان... ولا بدّ ـ إذن ـ من فتح الطريق للعودة إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتي لا تجد ذاتها وتحققها إلا بالاستجابة لنداءات الفرح الكوني، والأمل بالمصير الذي يعد به هذا الدين.

إن الإسلام، في سعيه لفكّ الإنسان من أسر الضرورات... في منحه القدرة على تجاوز الخوف والحزن والألم... في الارتفاع به عن ثقله الأرض وكثافة الطين... يغدو خفيفاً رشيقاً... وأكثر استعداداً لتلقي إضاءات الكون ونداءاته الآسرة، وفرحه الدائم الذي لا يتغير ولا يتبدل... أبداً...

ليست نيرفانا هندية... ليست سكوناً مطلقاً وتجاوزاً للاندفاع في المجرى المضطرب للأشكال... ليست تطهّراً روحياً يقود إلى الكبت والاندفاع المضاد باتجاه أبشع أنواع الملذات الحرام كالذي تشهده ساحات الفاتيكان... ولكنها حالة فريدة من الانشقاق عن العالم، وتجاوز جاذبيته... ولكنها في الوقت ذاته اندماج إيجابي

في الكون والعالم... واستجابة لأشواق الإنسان وحاجاته الأساسية... والتحامه بالطبيعة والجمال والوجود.

إنه البديل الوحيد، ولا بديل غيره... وان المفكر الفرنسي روجيه غارودي يمنحنا الجواب القاطع في كتابه المعروف (وعود الإسلام): «ماذا يعد به الإسلام ليكون جواباً على أزمة الحضارة الغربية المعاصرة؟! إن المشكلة كونية ولا بدّ للجواب إلّا أن يكون كونياً... والإسلام هو هذا الجواب»!!

إن بين أيدينا نحن المسلمين الرسالة المعجزة التي بعث بها إلينا خالق السماوات والأرض جلّ في علاه، وتكفّل بحفظها من أي تبديل أو تحوير... وهي الرسالة التي يتحتم علينا أن نضعها في عقولنا وقلوبنا وأرواحنا... أن نقرأها جيداً صباح مساء... وأن نتحقق بكل حرف أو كلمة أو آية أو مقطع، أو سورة من سورها وآياتها البينات...

وحينذاك... حين يصبح كل واحد منّا قرآناً يمشي على الأرض، كما حدث زمن جيل الصحابة الكبار (رضوان الله عليهم)، حينذاك يمكن أن نتقدم للعالم الغارق في ماديته، وشهواته، وتكاثره بالأشياء... بما يخرجه عن النقرة الضيقة التي وضع نفسه فيها إلى سماوات الحرية... والفرح... والرؤية الكونية التي يلتقي فيها كما يحدثنا كتاب الله: الوحي والوجود، والإيمان والعقل، والظاهر والباطن، والحضور والغياب، والمادة والروح، والقدر والاختيار، والضرورة والجمال، والطبيعة وما وراءها،

والتراب والحركة، والمنفعة والقيمة، والفردية والجماعية، والعدل والحرية، واليقين والتجريب، والوحدة والتنوع، والإشباع والتزهد، والمتعة والانضباط، والثبات والتطور، والدنيا والآخرة، والأرض والسماء.

وقبل هذا كله، ومعه، وبعده، تلتقي سنيّ العمر المحدودة بالأبدية الخلود، ويتلقى الجهد البشري جزاءه العادل هناك، فيما يحدثنا عنه كتاب الله في مساحات واسعة من سوره ومقاطعه وآياته البينات...

النعيم الدائم الذي لا يتفكك أو يزول، والذي يمنح الإنسان الأمل... يمنحه الفرح العميق بجدوى الحياة الدنيا، التي يعرف هذا الدين كيف يربطها بالعمق الكوني... فيعطيها طعمها العذب... وإحساسها العميق بالسعادة، والتوحد والفرح والاطمئنان...



وفق تصنيفها الموضوعي

أولاً: الأعمال التاريخية

أ ـ محور: المنهج والفلسفة:

١ ـ التفسير الإسلامي للتاريخ (٥ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٢ ـ حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ ابن خلدون إسلامياً (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥ ـ المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦ ـ دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو) (طبعة واحدة) (دار الرازي ـ عمان).

٧ ـ المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (طبعتان) (دار القلم ـ بيروت).

٨ ـ التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي (قيد النشر).

٩ ـ مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

١٠ ـ مدخل إلى الحضارة الإسلامية (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

ب ـ محور: السيرة والتراجم:

١١ ـ دراسة في السيرة (١٨ طبعة) (دار النفائس ـ بيروت).

١٢ ـ كتابات معاصرة في السيرة النبوية (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

١٣ ـ ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ عماد الدين زنكي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية (٣ طبعات) (دار القلم ـ بيروت).

ج ـ محور: البحوث والدراسات:

١٦ ـ دراسات تاريخية (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٧ ـ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ الإمارات الارتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة ـ بيروت).

١٩ ـ الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين (طبعة واحدة) (دار الفكر ـ دمشق).

٢٠ ـ خطوات في تراث الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢١ ـ محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية (قيد النشر).

د ـ محور: قضايا في التاريخ المعاصر:

٢٢ ـ ملامح مأساتنا في إفريقيا (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٣ ـ لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٤ ـ أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ مقالات إسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٦ ـ الرؤية الآن: في همَوم فلسطين والعالم الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٧ ـ أولى ملاحم القرن (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة ـ بيروت).

٢٨ ـ مذكرات حول واقعة الحادي عشر من أيلول (طبعة واحدة) (دار الفكر ـ دمشق).

٢٩ ـ أمريكا مرةً أخرى (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ثانياً: الأعمال الفكرية

أ ـ محور: المنظور الإسلامي للمعرفة:

٣٠ ـ أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) (٥ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣١ ـ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٢ ـ العلم في مواجهة المادية (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٣ ـ مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٤ ـ تهافت العلمانية (٧ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ب ـ محور: المنظور الغربي للإسلام:

٣٥ ـ قالوا عن الإسلام (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٦ ـ القرآن الكريم من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان ـ عمان).

٣٧ ـ المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان ـ عمان).

٣٨ ـ الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٩ ـ نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة) (دار النفائس ـ بيروت).

٤٠ ـ غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

ج ـ محور: البحوث والدراسات:

٤١ ـ مع القرآن في عالمه الرحيب (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٤٢ ـ حوار في المعمار الكوني: وقضايا إسلامية معاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤٣ ـ رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤٤ ـ مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤٥ ـ متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (طبعة واحدة) (دار الحكمة ـ لندن).

٤٦ ـ كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس) (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤٧ ـ الله أو الطاغوت: مسائل أساسية في التصوّر الإسلامي (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٤٨ ـ رحلة في عالم الكتاب الإسلامي (قيد النشر).

٤٩ ـ محاضرات إسلامية (قيد النشر).

٥٠ ـ أخطاء في حياتنا الإسلامية (قيد النشر).

٥١ ـ دراسات قرآنية (قيد النشر).

د ـ محور: المقالات الإسلامية:

٥٢ ـ آفاق قرآنية (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٥٣ ـ مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥٤ ـ في الرؤية الإسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥٥ ـ في دائرة الضوء (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٥٦ ـ من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٥٧ ـ العالم ينتظر البديل (قيد النشر).

٥٨ ـ آيات قرآنية تطل على العصر (قيد النشر).

٥٩ ـ أحاديث نبوية تطل على العصر (قيد النشر).

ثالثاً: الأعمال الأدبية

أ ـ محور: الدراسات الأدبية والفنية:

٦٠ ـ الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦١ ـ فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٢ ـ الفن والعقيدة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٣ ـ قراءة في كتابات النورسي: رؤية جمالية (الكلمات) (طبعة واحدة) (دار سوزلر ـ القاهرة).

ب ـ محور: التنظير:

٦٤ ـ في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٥ ـ مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٦ ـ حول استراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٧ ـ متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٨ ـ من يوميات الأدب الإسلامي (قيد النشر).

ج ـ **محور: النقد التطبيقي:**

٦٩ ـ محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٠ ـ في النقد التطبيقي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧١ ـ في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

د ـ **محور: الإبداع:**

١ ـ المسرحيات:

٧٢ ـ المأسورون (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٣ ـ الشمس والدنس (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٤ ـ المغول (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٥ ـ الهمّ الكبير (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٦ ـ التحقيق (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٧ ـ معجزة في الضفة الغربية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٨ ـ خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٩ ـ العبور (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢ ـ الروايات:

٨٠ ـ الاعصار والمئذنة (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٨١ ـ السيف والكلمة (طبعة واحدة) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

٨٢ ـ مذكرات جندي في جيش الرسول (ﷺ) (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

٣ً ـ القصص:

٨٣ ـ كلمة الله (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٨٤ ـ رحلة الصعود التي لا نهاية لها (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ً ـ الشعر:

٨٥ ـ جداول الحب واليقين (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٨٦ ـ ابتهالات في زمن الغربة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥ً ـ أدب الرحلات:

٨٧ ـ من أدب الرحلات (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦ً ـ أدب الحوار:

٨٨ ـ ريبورتاج: حوار في الهموم الإسلامية (طبعة واحدة) (دار الحكمة ـ لندن).

٨٩ ـ الطريق إلى فلسطين (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

٩٠ ـ لقاءات صحفية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٧ً ـ السيرة الذاتية:

٩١ ـ السيرة الذاتية:

لا إله إلا أنت (سيرة ذاتية) (قيد النشر).

٩٢ ـ من مذكرات طالب جامعي (قيد النشر).





دراسات قرآنيـــة

ينطوي الكتاب على جملة من الدراسات التي تتعامل مع النص القرآني، فتكتشف مافيه من كشوف مدهشة، وظواهر معجزة، وعجائب تثير الفكر والوجدان ... إنه الكتاب الذي لاتنقضي عجائبه، والذي تمضي سوره ومقاطعه وآياته البينات لكي ترفع خطابها المشحون قبالة سمع الإنسان وبصره في كل زمن ومكان، فتقوده إلى الصراط.

يبدأ الكتاب بعرض لرحلة المؤلف المؤثرة مع القرآن الكريم، ثم مايلبث أن يمضي لمعالجة شبكة من الموضوعات التي تهم المثقف المعاصر وهو يعاني الأرق والقلق بحثاً عما يعيد إليه أمنه الضائع وتوحده الذي مزقته رياح التشريق والتغريب، فيتحدث عن الحياة التي يريدها كتاب الله، وعن مستويات الخطاب القرآني لرسول الله ، وعن معجزة الأمطار، والطاغوت وتوقيت العقاب الإلهي، وثنائية الخطاب القرآني، وحول النبوءات المستقبلية، والفرح الكوني، ودين الكادحين، ودين التحرير، ورحلة المؤلف مع (الصوت) في كتاب الله.





www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com